حارسة

حارسة (رواية)

عبد الهادي المدادحة (كاتب أردني)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

المراجعة اللغوية: م. سامر المجالي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-515-0

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(3010/ 6/ 2022)

306

المدادحة، عبدالهادي خليل

حارسة، عبدالهادي خليل المدادحة عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(178) ص

ر. إ: 3010/ 6/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

عبد الهادي المدادحة

حـــارسة

رواية

إلى أبناء «حارسة»

الذين يشبهونها وتشبههم؛

كأنها قُدّت من ضلوعهم، وكأنهم قُدّوا من حجارتها.

وإلى الصديق د. باسم الزعبي،

الذي أفدتُ كثيراً من نصائحه التقنية والدرامية المتعلقة بالرواية.

شخصيات هذه الرواية وأحداثها خياليّة، رغم أنها تتشابه مع شخصيات وأحداث حقيقية.

الاستثناء هو الشخصيات الدينية والتاريخية.

«حارسة» هي فقط الحقيقية.

مقدمة

أساميناً، شو تعبوا أهالينا تـالاقوها

وشو افتكروا فينا..

جوزيف حرب

بصوت فيروز

حارسة بنت البرجاس

أُدرك أن النقـاد لا يفضّـلون كتابـة مقـدمات للروايـات، لكنـي مضـطرة لذلك. كان يفترض أن تكون الرواية عنّي كما أبلغني المؤلف وقال لي بالحرف الواحد: أنتِ شخصية استثنائية، فأنت أول فتاة من حارسة تدخل مجال الفن وتصل إلى العالمية، إنكِ بالنسبة لي نموذج لشخصية ناجحة.

كنت محرجة في البداية، فأنا سرت في طريقي ذاك دون أن أفكر في أن أكون شخصية متميزة، ما قادني لأن أكون ناجحة شيئان: شغفي بالفن وحبي لحارسة؛ مدينتي الحبيبة. حارسة، الاسم الذي أتعبني في صغري، وكنت أخجل منه عندما تناديني به المعلمة أمام زميلاتي في غرفة الصف، وبينما هن يحملن أسماء حديثة عصرية رقيقة: ناديا، شيرين، ريما، رندا... أما اسمي فمعناه لا يناسبني أنا الفتاة! حاول أبي أن يشرح لي معناه، قال: إنه يعني التل يعلوه بناء، وأنا لست تلًّا ولا يعلو رأسي بناء ومساكن وقلاع، وكان يؤكِّد لي أنني عندما أكبر سأحب اسمي.

أبي كان اسمه مختلفًا عن بقية الأسماء أيضا؛ البرجاس! ماذا خطر في بال جدي وجدتي عند تسميته البرجاس؟ سألته مرة عن معنى اسمه، فقال إنه الكرة المعدنية التي تعلو سارية العلم أو الراية. وعندما سألته إن كان يحب اسمه، أجاب دون تردد، طبعًا. بعدها صمتَ قليلا، وراح يشعل سيجارته، ثم أضاف: «اسمي صنعني، يا حارسة. كنت مضطرًا أن أكون رجلا مستقيما في الحياة، وقدوة لجماعتي، وأسير في مقدمتهم للدفاع عن مصالحهم. كان العم مسلّم يقول عني إنني شخص استثنائي، لكني والله لم أكن إلا نفسي، وكنت كما كنت أعتقد أن عليَّ أن أكون».

بعد ذلك الحوار أصبحت أحس بتميّز اسمي، وأن عليَّ أن أكون كما أعتقد، وربما زاد تعلقي بهذا الاسم أني أعشق حارسة، وأحب أبي الذي سمّاني باسمها.

حبيّ لحارسة دفعني للبحث عمن يشبهها من أبنائها، فوجدت وجه أبي الذي يَدِقُّ عند الذقن فيصبح أشبه بمنقار طائر العقاب، ويعرُض عند الجبين فيصبح كأنه كتاب مفتوح. هكذا هو وجه حارسة التي تقع على تل مرتفع يَدِقُّ في الجنوب ويعرُض في الشَّمال.

سمعت يوما روائيًّا عالميًّا مشهورًا جدًّا يقول: لا تكتمل الرواية أبدا، هناك الكثير مما لم نكتبه، لكننا نرويه بألسنتنا. وأنا أقول إن اللوحة الفنية يكاد الرسام لا يفرغ من رسمها، فدائما يظهر هناك ما يمكن أن يضيفه إليها.

كان يفترض أن تكون الرواية عني، كما قلت، لكن الأقدار حوّلتها، فلم أكن أعلم، لا أنا ولا الكاتب، أن الأحداث ستأخذنا باتجاه آخر. لم نكن نعلم بأن أبي يتعرّض إلى الاعتداء، ويتغير مسار الرواية، فلا أعود أنا الشخصية الرئيسية فيها، بل سأكون راوية للأحداث، وسيكون والدي البرجاس الذاكرةَ التي أستمدُّ منها الذكريات عن الأحداث التي لم أشهدها، ولولا ما حدث لما تعرفت على ذلك الضابط الأسمر الذي يشبه وجهه وجوه أبناء حارسة، والذي جعلني أغوص في أعماق ذاكرة أبي للوصول إلى خيطٍ يقودنا لمعرفة من كان يقف وراء الاعتداء على أبي. ولم أكن أعرف أنني سأعيد رسم لوحتي لأضيف إليها وجوها جديدة من أبناء حارسة الذين تركوا في تاريخها علامات مميزة، بما فيهم وجه ذلك الضابط.

«حارسة» المدينةُ عَبَرَتْ خيالَ الرُّواة بكلِّ ما فيها من معالمَ ووجوهٍ وأحداث. وعَبَرَت عُيون الرَّسّامين بكلِّ ما فيها من تنوُّعٍ معماريٍّ، وتنوُّع بشريٍّ، وطبيعةٍ استثنائيَّة. الحياة في تلك المدينة هيَ حَيَواتٌ مختلفة أحيانًا، ومتشابهةٌ أحيانًا أخرى، لأُناس عاشوا فيها منذ بدء التَّاريخ، وما زال أحفادُهم يجرون في أزقَّتها وأسواقها، وهم يحملون الشُّعور نفسَه بالعزَّة والكرامة والقوَّة.

ربيع الغضب

نُدب الجسد لا تؤلم عند ملامستها، وحتى حكّها،
لكن الذي يؤلم هو فتحها، وكذلك هي الذاكرة.

شريفة العامرية

أذكر ذلك اليوم الربيعي جيدًا، فالشمس التي أطلت بعد غياب طويل هي التي دعتنا إلى أن نجعل جلستنا في شرفة المنزل (البرندة) تحت معرَّش الدالية المطلة على حارسة وقلعتها الشامخة، وشجرة الأكاسيا التي تشق الصخرة وقد انفجرت أزهارها الصفراء ناشرة البهجة في المكان (لا أعرف لماذا يعتبرون اللون الأصفر لون الحزن رغم أنه لون مبهج جميل!)، ونبتت حولها أزهار الدحنون الحمراء.

نيسان قد حلّ علينا بكل بهائه وبهجته.

كنا نُعدّ تجهيزات لمَّة الجمعة التي كان يصر البرجاس عليها منذ خمسين عاما، منذ أن كان والداه على قيد الحياة، ثم بعد أن توفاهما الله، وأصبح هو أبًا وجدًّا.

أعددت مائدة الطعام جيدًا، فرشت عليها المفرش الأخضر المطرَّز بالخيوط الذهبية على شكل زخارف سداسية طالما حاولت حارسة في صباها تقليدها على أوراقها الخاصة. حارسة أعطاها الله موهبة الرسم،

وقبل هذا وهبها الجمال والثقة في النفس. تُحضّر لسفرها إلى باريس لإقامة معرضها في قاعة اليونسكو هناك. أنا فخورة جدا بها، لكن البرجاس هو أكثر من سيفرح لحارسة بإقامة معرضها العالمي الأول في باريس، فما من أحد شغل قلب البرجاس أكثر منها، فهي ابنتنا الوحيدة، جاءت إلى هذه الدنيا بعد انقطاع عن الحمل والولادة مدة تزيد على سبع سنوات. خفتُ كثيرا أثناء فترة الحمل، إذ كنت قد تجاوزت الأربعين، لكنها مشيئة الله، فقد رزقنا الله بحارسة بعد أربعة أبناء ذكور ولدوا متتالين، يفصل بين الواحد والآخر منهم عامان اثنان أكون خلالهما مرضعة.

الأبناء الذكور متعِبون في الحمل والولادة والرضاعة، وفي كل شيء، حتى بعد أن كبروا، ما زالت همومهم تشغلنا، وما زال البرجاس منشغلا بهم. فهم كلما اجتمعوا يحتدم الخلاف بينهم، ولا يهدؤون إلا عندما يتدخل البرجاس، وكالعادة رأيه هو الحاسم: «أنا لا أفهم كيف تفكرون، هل ستكونون في طليعة الجماهير بهذا الأسلوب؟ هل يمكنكم إقناع شخص واحد من الناس بقضيتكم؟ إن كنتم أنتم النخبة المثقفة، النخبة الواعية، النخبة المخلصة لوطنها، لا يمكنكم أن تتفقوا، فكيف يمكنكم أن تجمعوا الناس حولكم؟ لا شك أن الاختلاف رحمة، لكن دون أن يقود إلى خلافات وشقاق ونزاعات، أنتم اشتراكيون وقوميون وإسلاميون تنتمون إلى هذا الشعب، فكروا بما يجمعكم لا ما يفرقكم، فكروا أنكم إخوة لا أعداء، فكروا بما يريده الناس منكم».

عندما يواجههم بهذا الخطاب يخجلون من أنفسهم، ويتوقف الخلاف، ويعود المزاح والضحك ويجمعهم الحب، حبّهم لأبيهم البرجاس ولحارسة.

أصر البرجاس على تسمية ابنتنا الوحيدة حارسة باسم مدينتنا التي أَحَبَّها. كنت أرغب في تسميتها ياسمين، لكن البرجاس رفض وأصرّ على اسم حارسة رغم غرابته، قال: أتعلمين يا شريفة، سيكون لها شأن كبير، ستكون حارسة هذا البيت، وحارسة المدينة، والقلعة التي تحمي إخوتها.

انتقلنا إلى منزل يقع على تل مرتفع تظهر منه القلعة وسورها وأبراجها، وكان من الممكن رؤية بوابتها العالية، وقبة مقام الولي العجمي الخضراء المستديرة، والقنطرة الصغيرة القديمة التي رُصَّت حجارتها بشكل دقيق ومنتظم ليعبر الناس منها إلى داخل القلعة.

البرجاس يجلس هنا في هذا المقعد المواجه للتل الذي تقع عليه المدينة وقلعتها، والذي يبدو في أحد أطرافه مثل منقار نسر، ويتسع في الطرف الآخر حتى يصبح كأنه كتاب مفتوح. هكذا وجه البرجاس يشبه وجه «حارسة» المدينة، يدق عند الذقن ويعرض عند الجبين فيصبح كأنه كتاب مفتوح. لا يمل البرجاس من النظر إلى حارسة من مكانه هذا ساعات طويلة.

احتل البرجاس كعادته مكانه المطل على حارسة وقلعتها، وعلى الشارع أسفل البيت، وعلى الأولاد الذين أحاطوا آباءهم وقد احتدمت

نقاشاتهم، والأطفال الذين يطاردون بعضهم بعضا بين المقاعد، وتنبيه والديهم لهم أن يبتعدوا، والبرجاس الصغير ابن ناصر وهو يعتمر كوفية جده رافعا رأسه مقلدًا جده، وطالبًا من عمه كريم التقاط صورة له. أذكر كم كان البرجاس مبتهجا، لم يعتد على إغضاب طفل من أحفاده، يصعدون على كتفيه، ينزعون عنه كوفيته وعقاله ليضعوهما بطريقة مضحكة على رؤوسهم، حتى إن البرجاس الصغير يتجرأ ويطلب من جده عباءته، ولا يردّه، فيقول عمُّه كريم ممازحا:

- إن شاء الله تطلع لجدك، وليس لأبيك؟

فيرد إبراهيم محتجا:

- لا يا سيدي، هنيئا له إن طلع لأبيه، ها هو رئيس بلدية، وليس مختارا.

يضحك الجميع، فيعلق كريم:

- على سلامته أبو البرجاس، الحق إنه شيخ، لكن ما قصته مع مقام الولي العجمي؟

هنا يتدخل ناصر مقتربا من الطاولة:

- أستغرب منك، يا كريم، وأنت الذي لا تؤمن بالخرافات، أن تكون متحمسا لإبقاء المقام الذي لا يعرف له أحد أصلا ولا فصلا، أعطني مصدرا واحدا يؤكد أصله.

يتحمس إبراهيم الذي بدا غافلا ويسأل مستغربا:

- ماذا؟ ماذا؟ هل أفهم أنك تريد إزالة المقام، ناصر بيك؟

يستند ناصر إلى كرسيّه، ويضع رجله اليمنى على أختها اليسرى، ويبدأ خطابا جادا يشد إليه الجميع، ناسين الأطفال وحركتهم، وصراخهم:

- اسمعوا يا إخوان، أنا الآن رئيس بلدية، وعليّ أن أفكر بالمصلحة العامة. لقد اتفقنا على تطوير الحي الشرقي ووسط المدينة، وأنتم تعلمون أن الناس عندما انتقلوا للأحياء الجديدة تركوا البيوت القديمة مهملة. المقام مهمل حاليا، ولا يأوي إليه إلا المشردون، فما حاجتنا إليه؟ كفانا شركا بالله.

قال إبراهيم:

- طبعا، لأن المقام لا يعني بالنسبة لك شيئا، لكنه يبقى جزءا مهما من ذاكرة حارسة. هل تريد ألّا يبقى لحارسة ذاكرة؟ مثلما أن القلعة جزء من ذاكرتها، كذلك مقهى الخشمان، والكنيسة، والمسجد الكبير، وسوق الحلال، والمدرسة.

ثم التفت إلى والده، وأضاف: «كما هو والدنا جزء من ذاكرة حارسة، هل نسيت ذلك؟ هل نسيت تلك المخرجة الإنجليزية العجوز، السيدة هيلين، التي صورت فيلما عن حارسة وقدّمت أباك بصفته حارس حارسة، ومخزنَ ذاكرتها؟».

قاطعه ناصر منفعلا:

- على رسلك، على رسلك! كل ما ذكرت على العين والرأس، وأنا لم أنس أبي، وأعلم أن له أفضالا ليس علينا وحسب، بل على حارسة بأكملها، لكن ما علاقة ذلك بفكرة تطوير الحيّ الشرقي ووسط المدينة؟

كنت قد سمعت ذلك النقاش، وشعرت أنه ربما سيحتدم، فأنا أعرف أبنائي جيدا، إن بدؤوا النقاش بموضوع لن ينتهي حتى ينشغلوا بشيء آخر؛ تحضير الطعام، أو دخول ضيف، أو هاتف يطلب أحدهم. طلبت منهم أن يجهزوا المائدة بالأطباق والشوك والملاعق، لأن الطعام جاهز.

كان البرجاس يتابع النقاش دون أن يتدخل فيه، إنه لا يتدخل إلا عندما يشعر أن النقاش يمكن أن يتحول إلى خلاف، وكان إن بدأ كلامه يتراجع الجميع، ولا يقاطعه أحد، ويخرج الجميع من عنده متصافين متحابين مثل الأطفال، استعاد عباءته، وسوّى كوفيته، فهو لا يحب أن يتحدث وهو في وضعية غير مناسبة، وعندما يفعل ذلك، ويتنحنح، يدرك الجميع أن عليهم أن يُرجعوا ظهورهم إلى الخلف، ويشبكوا أيديهم أمامهم كأنهم طلاب في صف مدرسي:

- البيك محق بضرورة تطوير الحيّ الشرقي ووسط حارسة، لكن التطوير لا يعني إلغاء ذاكرة المدينة، نحن نعيش بتلك الذاكرة، ولم نَبقَ على ترابها إلا بتلك الذاكرة. الولي العجمي وحّد أهل المدينة ولم يفرّقهم. انس يا بني قصة أصله، وانسوا مسألة أن يكون خرافة

أو خلاف ذلك، انظروا للموضوع من زاوية واحدة: هل خدم ويخدم حارسة وأهلها، أم لا؟ وعوض أن تزيلوا معالم المدينة القديمة، رمموها، واجعلوها مزارا، فكّروا: ألا تحتاج حارسة إلى أنصاب تذكارية تخلد العظماء الذين تعاقبوا عليها.

أنا دائمة الحركة عندما يأتون يوم الجمعة، رغم أنني تقاعدت بعد أن عملت خمسا وثلاثين سنة، إلا أنني لا أعرف الاسترخاء، بل إنني في أعماقي أتمنى لو أنهم يأتون كل يوم فأراهم حولي. الأم التي ترعى ابنها عشرين سنة أو أكثر، تعرف تفاصيل كل خلية في جسده وفي روحه، لا تستطيع أن تبتعد عنهم كثيرا. أعرف أنهم متزوجون، ولهم زوجات وأبناء، وبيوت خاصة، ولهم أشغالهم، وانشغالاتهم. لكني أحب أن أراهم حولي، أبتسم لمناكفاتهم بعضهم بعضا. البرجاس هو الآخر يحبُّ أن يراهم حوله، يشعر أنهم عزوته في هذه الحياة، صحيح أن كل واحد منهم له أفكاره الخاصة ومواقفه، وأحيانا تحتد جدالاتهم، لكنه حريص على أن يبقوا تحت عباءته. وهم أيضا بدورهم لا يخالفونه.

أخّرنا الطعام، لأن أسامة تأخر في المستشفى، وكان قد اتصل وأخبرنا أنه طرأت لديه عملية جراحية لأحد المرضى، وأنه سيحضر فور أن ينهي العملية. حضر حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، بدا مهموما، وكانت بيده جريدة، مرّ عليَّ وقبَّلني على رأسي وسألني عن حالي. كان يسميني «ست

الكل» ولم يزد على ذلك، ثم انتقل إلى مكان الجلسة، حياهم وألقى الجريدة أمامهم، وهو يقول:

- ولّعت في الجنوب. ما كنا نخشاه يحدث الآن، والحكومة تكذب وتصف ما يحدث بأنه أحداث شغب. اتصلتُ بأحد الأصدقاء، أخبرني أن البلد مولعة، والناس لن تعود إلى بيوتها إلا برحيل الحكومة، ويقول إن هناك ضحايا؛ شهداء وجرحى.

راح ناصر يضرب رأسه براحة يده ويحوقل ويردد: «الله يلطف.. الله يلطف». إبراهيم بدت السعادة على وجهه، تمتم بعبارة: «إنها ثورة الفقراء»، وأضاف: «هذه نتيجة سياسة الصندوق، تدهور العملة لم يكن ليمر من دون ردة فعل».

وضعنا الطعام يومها بوجوم تام، حتى شهلا الثرثارة زوجة كريم خرس لسانها، وصارت تتحرك بسرعة وبكثرة. لم يمد أحد منهم يده إلى الطعام؛ كأنهم خجلون من أنفسهم لأن إخوانهم في الجنوب ينتفضون، وهم هنا يجلسون مستمتعين. لم أكترث لدعوتهم للطعام، فأنا أيضا لم يكن لدي مزاج لتناوله. الصغار وحدهم مدُّوا أيديهم، لكن المشهد لم يمر على البرجاس الصغير، فسأل جدّه ببراءة:

- جدي، ماذا حدث؟ لماذا الجميع صامت؟

كعادته في مثل هذه المواقف كان البرجاس يفرك ذقنه ويهمهم، في حين يكون رأسه يشتغل، قال كلاما لم يفهمه الصغير، لكن الكبار فهموه:

- لا يوجد عقلاء في البلد غير الملك، وهو خارج البلد. قمع المظاهرات لن يحل مشكلة. لن نترك أهل الجنوب وحدهم.

وأدار وجهه نحو الشارع أسفل الدار. كان بائع الخردة بسيارته يصيح على خردوات الحديد والنحاس، اقترب طفل منه يحمل بيده خوذة عسكرية معدنية. تناولها تاجر الخردة، تأملها أمام عينيه، وألقى بها فوق أكوام الخردة، وأخرج من جيبه شلن، ونقد الطفل الذي تناول الشلن كئيبا واستدار مغادرا. رأيت في تلك اللحظة البرجاس ينهض ويصيح على بائع الخردة كي يتوقف، وقد بدا غاضبا، لكن الأخير غادر دون أن يلتفت نحوه. تمتم وهو يضرب رأسه براحة يده:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! كرامتنا أصبحت خردوات.

في الأثناء كان العم مسلّم يمر في الشارع، نادى عليه البرجاس، وأصر عليه أن يدخل. دخل العم مسلّم، وقف عند عتبة الدار متأملا الوجوه الواجمة، وبعد لحظة صمت وتأمل اتجه نحو المقعد إلى جانب البرجاس وهو يقول كلاما غير مفهوم كالمعتاد:

- البيت يحترق، والمركب يغرق، ولا أحد على الحياد.

الجميع يعرف أن لا جدوى من سؤاله، فهو لا يجيب عن أي سؤال، يطلق تعبيراته ولا يكترث. بالتأكيد هو لم يسمع الأخبار، فأين يسمعها إذا لم يكن يستقر في مكان. ومع ذلك كلماته زادت النفوس اكتئابا، حوقل البرجاس ثم دعا أبناءه لتضييف العم مسلّم. تحرك الأولاد جميعهم دفعة

واحدة، ورغم أنني أعرف أنهم جميعهم يحبون العم مسلّم ويحترمونه؛ إذ يعتبرونه أيقونة حارسة، لكني رأيت أنهم كانوا يريدون أن يكسروا حصار الكآبة التي أحاطت بهم.

عرس الدم

امنحوا الشخص الهدف الذي من أجله
يحيا ويعيش ويتحمّل كل الظروف.
غوته

حارسة

تقول إمي، إنني ولدت في العام الذي هبطت فيه الطائرة المروحية في ميدان حارسة لتنقل المعلم الذي هشَّم الطلبة رأسه إلى العاصمة.

فاقت فرحة أبي بمولدي فرحته بمولد أي من الأبناء الذكور، هو أيضا كان يشارك والدتي القلق على حملها المتأخر، كان الخوف من ولادة طفل يعاني من إعاقة أو تشوُّه، لكن الله رزقهم كما يقولون، بأجمل طفلة يشع النور من وجهها.

أصر أبي على تسميتي حارسة، بينما كانت أمي تريد تسميتي ياسمين، وناصر أراد تسميتي ساجدة، وأسامة أراد تسميتي جيفارا، وكريم اقترح تسميتي ثروت، أما إبراهيم فاقترح تسميتي عروبة.

حسم أبي الأمر، إذ سجل اسمي في الأوراق الرسمية حارسة ابنة البرجاس.

عشنا في منزلنا القديم في قلب حارسة المدينة، كان المنزل تحفة فنية أعدتها أمي، فالأثاث صنعه النجار الأرمني الموهوب هاكوبيان، بزخارفه المحفورة في الخشب، والمفارش ذات الزخارف والرسومات التي تشمل أزهارا، وأوراق نباتات، وطيورا، وستائر النوافذ من قماش التول برسومات تجمع البيوت الخشبية والأكواخ والجداول.

صوت خرير مياه النافورة التي أحضرها أبي لأمي من الشام في عيد زواجهما الثاني كان أنيسي ومتعتي.

شجعتني أمي على الرسم، فكانت تشتري لي الأقلام والألوان والأوراق، علمتني كيف أمسك القلم وأرسم ما أتخيله. وكانت تهتم بأناقتي. ألبستني أجمل الملابس ذات الألوان الزاهية، المزينة برسومات جذابة، وكانت تربط شعري الأسود الكثيف على شكل ذيل فرس.

تعرفت أمي على الرسم من خلال زوجة خالي التركية، وقد أحبت أن أتعلم أنا الرسم من زوجة خالي. كانت زوجة خالي فنانة محترفة ترسم اللوحات الزيتية وترسم على الماء، ذلك الفن الذي أبهرني. رأيتها كيف تثبّت اللوحة على القائم (الستاند) أمام الشيء الذي ترسمه، سواء كان حصانا، أو شخصا، أو طبيعة. كانت ترسم أدق التفاصيل. علَّمتني مزج الألوان، واستخدام الفرشاة، وكيف أعتني بالتشريح، والضوء والظل، وكيف أضيف أحاسيسي للموضوع.

أخي أسامة كان يحب الموسيقى، ويعزف على العود، حاول تعليمي الموسيقى، وقد تعلمت قليلا، إذ أخذني شغف الرسم أكثر، وإبراهيم اهتم بتوجيهي لقراءة الأدب، أعارني كتبًا ما زلت أذكرها: رواية الأم لغوركي، والإخوة كارامازوف لدوستويفسكي، وشرق المتوسط لعبد الرحمن منيف، والعجوز والبحر لهمنغواي، وثلاثية نجيب محفوظ: بين القصرين، وقصر الشوق، والسكّرية، والنبي لجبران خليل جبران، وغيرها. أمي كانت تحب الشعر العربي، فهي معلمة لغة عربية، وأبي كذلك. كان أبي يحب قراءة ديوان المتنبي، وديوان أحمد شوقي، وإبراهيم طوقان، وعرار، وقد قرأتهم، أما ناصر فكان ينصحني بقراءة القرآن، وسورة يوسف، وفعلا حفظتها كاملة وكنت أطرب لسماع تلاوات الشيخ عبد الباسط. كنت لا أرفض نصيحة بالقراءة.

أبي تاج رأسي، ومصدر قوتي ومنبع سعادتي ومهجع راحتي الدائم.

في حضنه أشعر بالأمان الدائم، ويشعر هو بالطمأنينة، يقودني صباح كل يوم بيده إلى المدرسة، ثم يأتي ظهرا لاصطحابي للمنزل، لا يرفض لي طلبا أبدا مهما كان.

لم أكن أتخيل رجلا في العالم يشبه أبي البرجاس، لذلك كان مشروعي الأول في الرسم. اللوحة الكبيرة المعلقة في صدر البيت مقابل المدخل رسمتها له عندما أنهيت المدرسة، أخذَتْ مني ثلاثة أشهر، رسمتها باحتراف وحب عاليين. كنت أُجلسه ساعات على كرسيه الخشبي

المزخرف الذي صنعه النجار الأرمني، بعباءته البنية فوق بدلته السوداء وقميصه الأبيض وربطة عنقه خمرية اللون وحَطَّته الحمراء ذات الهدب ناصع البياض. كان شارباه حتى ذلك الحين شديدي السواد، ولم يغزهما الشيب بعد، وخلفه النافذة تطل منها قلعة حارسة، وشجرة الياسمين بأوراقها ساطعة الخضرة وأزهارها ناصعة البياض. أضأتُ وجهه بمصباح إضافي حتى أستطيع أن أرسم ملامح وجهه بدقة. لأبي عينان تبوحان بشخصيته لكل من يراهما. لمعانهما يوحي بذكائه (أنا لست متعصبة لأبي، هذه حقيقة)، ونظراته الحادة من تحت حاجبيه الأسودين حالكي السواد، تنمان عن شخصية قوية لا تهاب أحدا.

رسمت اللوحة بقياس كبير، (متر × 180 سم)، رسمته وفي يده الكتاب الذي لم يفارقه. كانت اللوحة بخلفية صحراوية (لون الجدار)، ومن النافذة تبرز القلعة وسماؤها الزرقاء. وكان الداخل للمنزل يراها قبل أن يرى أي أحد من أهل البيت، ويتعرف على أبي قبل أن يراه، ذاك هو البرجاس بن محمد عودة الحارسيّ، رجل حارسة الأول. أبي كان الشهادة التي أوصلتني إلى مقاعد كلية الفنون في روما. تلك اللوحة كانت جواز سفري للقبول في تلك الكلية.

كنت قد أنجزت معرضي «أبناء حارسة» الذي سأعرضه في مقر اليونسكو في باريس قبل ذلك الحادث الذي قلب كل شيء في حياتي. ليس لأن البرجاس هو أبي، بل لأنه كان من أبرز أبناء حارسة الذين صوَّرتُهم،

صوَّرتُهُ مفعما بالحياة، يقف كالطود لا يحني رأسه لأي عاصفة، وهو الجبل الثابت الذي يستظل بظله المتعبون من المسير، فيشعرون بالأمان، ويستمدّون منه طاقة وعزيمة جديدة لمواصلة المسير. ما زالت الأجيال تذكر كيف تصدى لأبي الشامة، ذاك المخبر الذي كان يزرع الخوف في قلوب الشباب المعارضين لسياسات الحكومة. كان أبو الشامة يمشي في الشوارع مختالا كالطاووس، حاملًا عصا الخيزران ذات الرأس المدبب تحت إبطه، شامخًا أنفه، عندما سدّ عليه أبي الطريق بذراعه التي امتدت فجأة من جانب الطريق. حاول حينها أن يزيح الذراع الطويلة بزندها العريض، لكنه وجدها ذراعًا حديدية، فقال بعجرفة موجِّها كلامه إلى أبي:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

وبعد أن حاول ثانية إنزال الذراع ولم يفلح، أضاف متأتئا، وبالعجرفة نفسها: «هل تعرف من أنا؟».

رفع أبي عينيه، وسلّط عليه نظراته الغاضبة، وقال ساخرا:

- ومن لا يعرف أبا الشامة! وبما أنك سألت من أكون، فأنا البرجاس.

ثم نهض فبدا أبو الشامة قزما أمامه، نظر إليه من علٍ، وأضاف: أريد أن تكفّ بلاويك عن شباب حارسة، من تظن نفسك؟ هل تكون محرِّر الأندلس أم فاتح القسطنطينية وأنا لا أعرف؟

أبو الشامة ذاك، الذي مضى ذليلا في ذلك اليوم عاد بعد تلك السنوات الطويلة مديرًا للشرطة في حارسة، يقولون إنه سأل عن أبي وعن عبد الرزاق السقا منذ لحظة وصوله، وقد امتعض عندما علم أن أبي ما زال على قيد الحياة، وأن أخي ناصر أصبح رئيسًا للبلدية، وأسامة مديرًا للمستشفى، وإبراهيم محاميًا ورئيس نقابة المحامين في حارسة، وكريم مقاولًا كبيرًا. وفرح عندما علم أن السقا قد مات منذ زمن بعيد.

أسامة لا يستبعد أن تكون لأبي الشامة يد في محاولة قتل أبي، لكن ناصر أخي استبعد الاحتمال، لأنه ليس من سياسات الشرطة الاغتيال:

- لكنه لم ينس إهانته قبل أكثر من ربع قرن، وأنا أعرفه شخصيا، فهو شخص حقود لئيم.
- على كل حال لا نستطيع أن نتَّهم أحدًا بدون دليل، كما أننا لسنا المحققين. الشرطة ما زالت تحقق وتجمع الأدلة.

تدخل إبراهيم في النقاش الذي أصبح يجري يوميًّا بين إخوتي منذ تلك المحاولة المشؤومة، خاصة عندما يجتمعون عند أبي الراقد في سريره بين الحياة والموت:

- لكنْ نحن أناس متعلمون، ونميّز ما يُقدم من أدلة، ويمكننا مساعدة الشرطة في التحقيق بالحادث، وبصفتي محاميًا، أقول لكم إن كل معلومة تفيد الشرطة في التحقيقات.

- وهل تريد منا أن ننقل للشرطة قصةً مرّ عليها أكثر من ربع قرن ومدير الشرطة طرف فيها؟ هل تعتقد أن الشرطة ستتجرأ على استجوابه؟
- نعم، هذا واجبنا على الأقل، والباقي من مسؤولية الشرطة.

كريم الذي بقي صامتا طوال الوقت تحدَّث، ولأول مرة يتفق مع ناصر في شيء. قال:

- أنا أتفق مع ناصر، وأستبعد أن يكون لأبي الشامة دور؛ فعلا، لماذا يأتي الآن أبو الشامة ليثأر بسبب حادثة عابرة مرت عليها خمس وعشرون سنة؟ لماذا كان عليه أن يؤجل الانتقام كل هذه السنوات؟

أنا أعترف أنه من الصعب الوصول إلى الحقيقة، لأن الشخص الذي أقدم على الضرب لم يترك أثرًا.

ورغم أنني لا علاقة لي بالتحقيقات، ولا أعرف كيف يجرونها، إلا أن محاولة قتل أبي هزتني هزًّا، وقلبت كل شيء في حياتي، فقد أجّلتُ المعرض، وتركت الأعمال محفوظة في البيت.

كنت قد رسمت شخصيات عدة، منها: أمي شريفة، والعم مسلّم، وباتع الخشمان، وعبد الرزاق السقا، والربان أبو أحمد، والصيدلي يوسف آرتريان، والجزار عتيق، والميكانيكي أبو إلياس، وسوف أتحدث عن كل شخصية لماذا اخترتها، وكيف تصوَّرتها، وكيف صوَّرتها.

أحلام وكوابيس

عندما يصعب عليك تمييز الحلم من الكابوس، وتذهب مستنجدًا بالولي العجمي ليفكّك لك القضية ويعيد تركيبها لتصبح متجانسة تستقيم مع المنطق، فأعلم أنك في حارسة..

المحقق حابس

لا أعرف السبب الذي دعاني إلى أن أتفقد النبّوت الذي كان يحتفظ به أبي في البيت عندما جاءني خبر الاعتداء على الشيخ البرجاس. عندما قدّم لي الطبيب الشرعي التقرير، وراح يشرح لي، قرّرت أن أعود فورا إلى البيت وأتفقد النبّوت، ذهلتُ عندما لم أجده في مكانه فوق الخزانة.

لم يكن ما حدث إلا حلما حلمته أثناء منامي بالأمس. كيف يحدث هذا؟! رغم أنني في المنام هويت بالنبّوت على رأس ذلك الشخص، إلا أنني في الواقع لا أتخيل نفسي أضرب أحدًا بمثل ذلك النبّوت على رأسه، ولا أحب أن أرى أحدًا قتيلًا أمامي، ولا يمكن أن أضرب أحدًا حتى لو استفزني، وكان في غاية الوقاحة، قد يراودني أن أضربه بقبضة يدي على وجهه، لكن أبدا لا أفكر بضربه بنبّوت على رأسه، أو أن أطلق عليه النار.

أنا شخصيًّا لا أعرف ما ضرورة المسدس الذي أحمله بالنسبة لي، وها قد مضى على خدمتي عشر سنوات ولم أضطر يوما لاستخدامه.

دارت الأفكار في رأسي. أنا معجب بالشيخ البرجاس وأحبه مثل أبي، وأُكنُّ له كل احترام، رغم جريمة مقتل أخي الأكبر على يد ابن عمه، إلا أنني لا أكن له إلا كل احترام، فهو لا ذنب له، وقد أدان الجريمة وأدان ابن عمه بكل جرأة، وهو ما جعل أبي يوصينا بأن لا نتعرض له أو لعائلته.

مضى على ذلك الحادث زمن طويل، لم أفكر قط بالثأر، ولا يمكن لشخص مثلي يعمل في سلك الشرطة، ومهمته حماية الناس أن يقوم بقتلهم، كما أنني لم أعد أتقبل فكرة الثأر. «كل عنزة معلقة من عرقوبها» كما يقول المثل، {ولا تزر وازرة وزر أخرى} كما علَّمنا الحق العدل. حتى إنني عند وقوع الجريمة تلك، وقد كنت في ريعان شبابي، وكنت في فورة غضبي، اتجه غضبي نحو القاتل وحده، ولم أفكر البتة بأن شخصًا آخر مسؤول عن فعلته.

لا يمكن أن يكون ما حدث في المنام حقيقيا، فالحيثيات مختلفة تماما، فأنا لم أضرب الشيخ البرجاس، بل ضربت لصًّا لم أتبين أصلا ملامح وجهه، حتى إنني لم أصبه برأسه، بل بكتفه، وكان قد قفز من نافذة أحد المنازل تلاحقه صرخات امرأة.

عندما ذهبت إلى الطبيب الشرعي أخبرني أن البرجاس تعرض لضربة قوية على رأسه بأداة حادة، ويرجّح أن الأداة هي نبّوت عليه دبابيس

معدنية. الأمر يزداد سوءا ويكاد يخرجني عن طوري. أعلنت أنني سأتولى التحقيق بالجريمة شخصيا. عدت إلى مكتبي، وقفت إزاء النافذة، ورحت أراجع تفاصيل الساعات الأربع والعشرين الماضية، هل يمكن أن يكون أحد استخدم نبّوت أبي في محاولة قتل الشيخ البرجاس؟ ترى من له مصلحة في ذلك؟ بالتأكيد من فعلها كان يعرف أن بين عائلتينا ثأرا قديما، وأراد أن يصفّي حسابه على حسابي. هل يكون لأحد من إخوتي علاقة بذلك؟

بدت الأمور جدية وخطيرة للغاية. فمن الواضح أن الحادث ليس عَرَضيًّا، وهناك من يريد توريطي، فكان لا بد من إيجاد النبّوت، ثم البحث عن الأعداء المحتملين، وعليّ أن أبدأ بأهل المجني عليه. ناصر ربما يكون متعاونا، فهو شخصية عامة؛ رئيس البلدية، وهو بحسب معلوماتي شخص دمث، ومسؤول، وكذلك كريم، وبالتأكيد حارسة ستقف إلى جانب التحقيق وتقدّم كل المعلومات الضرورية. سأتحاشى أسامة وإبراهيم، فهما لا يكنّان الحب لنا، فقد اعتقلَتْهما الشرطة مرتين على الأقل في مظاهرات سياسية: مرة ضد زيارة رئيس مصر لإسرائيل، والثانية احتجاجا على سياسات الحكومة في رفع رسوم استخراج جوازات السفر، وهما سيوجهان التهمة لنا مهما كان الأمر، على قاعدة «عنزة ولو طارت».

اتجهت لدار البلدية لرؤية رئيسها ناصر بن البرجاس. البلدية التي احتلت مبنى قديما مرتفعا من الحجر ببوابته الكبيرة والدرج الحجري الذي يصعد إليها من الجانبين، ونوافذها المستطيلة العالية. إنها مميزة بين كل البنايات التي تحيط بها، ما زالت لها هيبة السلطة وجلالها. يقال إن المباني تعكس صورة ساكنها وشخصيته وروحه. لا يشبه هذا المبنى إلا مبنى السراي الذي أعمل فيه، والذي كلما دخلته أشعر بالثقة أكثر، فعلى مدخله يقف شرطي لا يسمح بمرور أي شخص إلا بعد تدقيق كامل ودقيق لهويته وحاجته، فلا أحد يستطيع أن يزورك فجأة كما يحدث في بقية دوائر الدولة. هنا تشعر بالعراقة، وبالذات أكثر، إذ تشعر أنك امتداد لحضارة عريقة سبقتك.

صعدت درجات المبنى. كانت هناك حركة كثيرة للمواطنين، وهذا أمر طبيعي، فهذه دار البلدية. عندما أخبرت سكرتير الرئيس بأني أريد مقابلته وعرّفت بنفسي، استجاب ناصر سريعا منهيا اجتماعا مع مديري الدوائر في الدار، رحب بي متوقعا أخبارا جديدة:

- أهلا حابس بيك، أهلا بالغالي ابن الغالي (ثم أضاف بنبرة حزينة): ظل والدي يذكر والدك بكل خير، ويقول إن أمثاله قليلون في هذا الزمن. عليه رحمة الله.

أبـديت أسـفي لمـا حـدث، وتمنيـت لأبـي ناصـر الشـفاء العاجـل، وأكـدت لـه أن الشـرطة لـن تـدخر جهـدا لمعرفـة مرتكـب الجريمـة وتقديمه للعدالة، وأضفت:

- ناصر بيك، نريد مساعدتكم للوصول إلى المجرم، هل تشتبهون بأحد؟ هل كان لأبي ناصر أعداء؟ هل دخل في خلافات مع أحد في الآونة الأخيرة؟ هل تلقى تهديدات من أحد؟
- أنت تعرف أبي، حابس بيك، إنه، وبالرغم من حدة لسانه بالنقد، إلا أنـه لا يُكـنُّ كراهيـة لأحـد، وهـو يُحـبُّ أبنـاء حارسـة جميعـا، ويعتبرهم أهله، ويعتبر نفسه مسؤولا عنهم، وأنت تعلم أنه قدّم حياتـه للـدفاع عـن مصـالحهم، سـواء بصـفته نائبًـا في البرلمـان، أو بصفته شيخًا لعشيرتنا.
- إذن، أنتم لا تشتبهون بأحد؟
- بالطبع لا، فهو يقول رأيه علنًا، هل تعلم أنه اجتمع مع الحاكم على غداء عندي بعد الانتقادات التي وجهها للحاكم بتقصيره في الثلجة الكبيرة الماضية، وفي حادثة غرق الأطفال في سيل وادي حارسة الكبير أول الشتاء، وتبادلا الحديث وكأن شيئا لم يكن؟
- تقديراتنا الأولية تشير إلى أن الحادث متعمّد وعن سبق تخطيط وترصد، وليس عرضيًّا، وواجبنا البحث عن الجاني.

ثم سألته إن كان إخوته يعرفون شيئا.

وبعد أن نهضت لأستأذن بالخروج، خطر ببالي الولي العجمي الذي لم أفكر به يوما، لا أعرف لماذا خطر ببالي الآن، قلت لنفسي لعله الوحيد الذي يمكن أن ألجأ إليه وأشكو إليه بثي وحيرتي. استدرت نحو ناصر، وسألت على نحو مفاجئ:

- هل صحيح أنكم تنوون في البلدية إزالة مقام الولي العجمي؟

رد بودٍّ متناه على عكس ما توقعت:

- نعم، الفكرة مطروحة ولا أخفي عليك، لدينا خطة لتطوير الحيّ الشرقي ووسط البلد سياحيًّا، لكن موضوع المقام لم يُحسم بعد، أنا مع إزالته لأن التمسّح بالمقامات شرك بالله. أضف إلى ذلك أن المقام أصبح مأوىً للمشردين، لكن بعض الأعضاء متحفظون.

تجرأت وعبّرت عن رغبتي الحاسمة التي برزت في تلك اللحظة:

- وأنا أيضا أقول لا داعي لإزالته.

مقام الولي العجمي، تلك الغرفة البسيطة المبنية من حجارة كبيرة تشبه حجارة القلعة، والتي تعلوها قبة مطلية بالأخضر، لم تكن بعيدة عن البرج الأسطواني؛ أحد أبرز أبراج حارسة، وليس بعيدا عن دار البلدية. قادتني قدماي إلى هناك، ولم يستغرق ذلك الكثير من الوقت. باب المقام الخشبي الثقيل لا يُغلَق أبدا، أدرت سكّرته ودفعته للداخل، فهبت عليَّ رائحة البخور والشمع المحترق، وكان الضوء يتدفق من نافذته الصغيرة القريبة من السقف ويضيء القبر المبني من الحجر الصغير، والمطلي

بالشيد الأبيض متوسطًا الغرفة تغطيه خرق من قماش الساتان الأخضر، وتعلوه عمامة خضراء مطوّقة بغترة بيضاء. القبر لا يتجه إلى القبلة ولا إلى الغرب، وتنزل إليه عبر درجتين حجريّتين تآكلتا من كثرة الدوس عليهما، كانت على الجدران نقوش لصلبان، وكتابات عربية وأخرى أعجمية، وبعض آيات القرآن الكريم نقشت أيضا على جدران الغرفة الداخلية. كان الضريح يقع في الجهة الجنوبية من حوش منزل فيه عدة غرف أخرى، يُدخلك من الحارة إلى المقام من دون استئذان أهل البيت أو إزعاجهم. في غرفة الضريح نافذة تطل على الطريق العام مفتوحة دائما لا تغلق، معلقة فيها نسخة من القرآن وأخرى من الإنجيل وكتب أخرى. وفي أحد الجدران مشكاة فيها مصباح يعمل بالزيت، مضاء دائما، ولا أحد يعرف من يضيئه.

أرضية المقام الحجرية تبث البرودة في المكان، وإذا ما أغلقت الباب خلفك ستجد نفسك في عالم آخر مفصول عن جدران تلك الغرفة السميكة. إنه عالم من السكينة والرهبة. لم أعد أسمع صوتا إلا صوت دقات قلبي الخافق رهبة، وبدأت أتخيل الولي العجمي داخل قبره المتسع، راقدا بكامل أبهته، بلحيته البيضاء الطويلة، وعمامته الخضراء واللفة البيضاء حولها، وجُبَّته الخضراء التي تعلو قفطانا أبيض. القبر بدا لي شفافا في تلك اللحظة، وأوسع مما توقعت، كان الولي قادرا على أن

ينهض ويقف ويتحرك ويلتفت إلي ويواجهني، ويسألني بصوت هادئ مطمئن:

- إني أراك مهموما يا بني! قل ما حاجتك؟

وجدت نفسي أتحدث إليه تلقائيا، وأبثه أحزاني: «سيدي الولي! أنا شخص لا أفكر بقتل نملة، فكيف بإنسان؟ لكنْ هناك شخصٌ هو حاليًّا معلق بين الحياة والموت بسبب نبّوت كنت أملكه. النبّوت هوى على رأسه وحطّم جمجمته، تخيل يا مولاي! أعني يا مولاي! أنت ولي الله، ولك حظوة عند رب العالمين، اشفع لي عنده، وليبعد عني هذا الهم. أقسم به الواحد الأحد أنني لست السبب، ادعُ الله أن يعينني على كشف المجرم».

في تلك اللحظة تدفق سيل من الضوء من خلفي، فاختفى الولي. التفتُّ إلى الخلف فإذا به العم مسلّم. ومن لا يعرف العم مسلّم في حارسة كلها وربما في خارج حارسة؟! إنه حارس هذه المدينة بقلعتها وأسوارها وبواباتها وبيوتها، يجوب شوارعها وأزقتها، معلنًا عن نبوءاته المستقبلية المدهشة التي يُبلغها إليه الولي العجمي كما يدَّعي، لكن الناس يعزون كلامه إلى ما تلقنه إياه زوجته الجنّية، وأنا أعزوه إلى قراءاته، فهو دودة كتب، يقرأ كل ما تقع عليه يداه، ويقال إنه نبش قبر الولي العجمي، ووجد فيه كنوزا من الكتب، لكنه بعدها لم يعد يتحدث إلا بتلك العبارات الغامضة. اتجه إلى البسطة التي كانت أسفل النافذة، وضع صحنا من

الطعام لم أتبيّنه جيدا، دون أن ينبس بكلمة، ودون أن يلتفت إلي. كنت مستعدا ووجلا لما سيتكلم به، قال:

- أنت بحاجة إلى الله يا بني، لكن الله لا يسكن المساجد والكنائس والمعابد والمقامات التي يشيّدها الناس، الله يسكن القلوب والأفئدة والعقول، الله موجود في كل مخلوقاته. ضالتك تحوم حولك، يا بني.

قال ذلك واستدار فأضاء شلال النور وجهه وهيئته كلها. إنه وجه مليء بالأخاديد، ولحية بيضاء بلون الفضة متصلة بشاربين ابيضّا بدورهما، ونظرات ثاقبة، وقبعة سوداء تغطي صلعته. ملابس بسيطة، لكنها نظيفة. كان مشدود القامة رقيقَها، والعصا، ذات الرأس المستدير، المصنوعة من غصن رمان طويل، لا يتكئ عليها، لكنها لا تفارق يده.

حيرني بكلماته، لا يريدني أن أطلب الشفاعة من الولي العجمي، رغم أنه أكثر شخص في حارسة يعتني بمقامه رغم فقره، ويزوده بالشمع والكاز والطعام. وحيَّر دماغي بكلمته «ضالتك تحوم حولك»، جعلني أهز رأسي بقوة، وكأن طبقات من الرماد تكدّست فوق دماغي وأريد أن أنفضها. ترى هل يقصد العقيد أبا الشامة؟ هل تراه يعمل من ورائي؟ منذ أن جاء مديرا اختلفتُ معه في أسلوب تعامله مع أهل حارسة، فأنا ابنها وأعرف جيدا طباع أهلها. إنهم لا ينصاعون بالمعاملة الفوقية، فهم لا يرون أحدا فوقهم، لكن بالكلمة الحسنة، الكلمة الطيبة، يمكنك أن تكسب قلوبهم

وتأسرهم. العقيد أبو الشامة هو من النوع الأول، وكثيرا ما حدثت بينه وبين بعض أبناء حارسة صدامات، يعود منها غاضبًا، خاسرًا. لكن ما شأنه مع البرجاس، أنا لم أعهد أنهما التقيا أو اختلفا، صحيح أنه يبدي تجاهلا كلما ذكرت سيرة الشيخ البرجاس، إلا أنه لم يلتق به. مع ذلك أنا لا أرتاح له، ولا أرتاح لطريقة تعاطيه مع أي مسألة أمنية. فأنا لا أفهم لماذا يتردد عليه ذلك الشاب مصعب، فأنا أعرفه جيدًا، إنه شخص متطرف فكريًّا، ومتهور، ومستفز. ما حاجته له، فهو لا يتوانى أن يشتمنا كما يقال على الطالع والنازل، بسبب أو بدون سبب، ويكفّرنا، وكأنه صحابي جليل، ونحن المنافقون. وكذلك لا أعرف سر اهتمامه بالشيخ أبي جعفر. لست أنا وحدي من لا يطيقه، بل أغلب أهل حارسة، فهو منافق، ماسح جوخ، وصولي، لا يتوانى أن يحطّم كل من يرى فيه منافسا له.

ربنا يسامحك يا عم مسلّم. فتحت بابا لن يُسد! كيف يمكنني أن أنام قرير العين بعد كلامك هذا، رغم أنك محق كل الحق، فحري بالمحقق المحترف أن يشتبه بأبعد شخص عن الشبهة، لماذا لا يكون أحد أفرادنا؟ لماذا لا يكون أحد أفراد عائلتي؟ من يرى في البرجاس خطرًا عليه، أو عقبة في طريقه، من له ثأر، أو تصفية حساب؟ آن أوان العمل الجدي.

فجر حارسة

يقولون إن للمكان ذاكرة،
فكيف إذا كان المكان حارسة؟!

شريفة

عندما صرخت حارسة صرختها الأولى في ذلك اليوم من أيام نيسان، والشمس ترسل أشعتها لتنير بيوت حارسة، كان البرجاس أول شخص يندفع إلى الغرفة ليراها، كنت قد استنفدت قواي جميعها، رأيت وجهه الطافح بالفرح والبشرى، حملها بين يديه ورفعها عاليا وهو يردد: حارسة.. حارسة. ابتسمت له واطمأننت إلى الوليدة، ثم دخلت في نوم عميق.

فور ولادتها ذهب البرجاس إلى سوق الحلال، ومعه عبد الرزاق السقّا، قالوا لي بعدها إنه كان يمشي بخطوات واسعة، كأنه يقفز قفزا، حتى إن عبد الرزاق لم يكد يجاري مشيه. اشترى كبشين كبيرين، أكبر كبشين في السّوق، قادهما عبد الرزاق حتى باب منزلنا، وهناك كبّر عليهما وذبحهما وسلخهما وقطّعهما وقد تحلّق حوله كل أطفال حارسة.

وكان البرجاس قد دعا نسوة العائلة لإشعال النار تحت القدور في ساحة البيت، وتجهيز الطعام احتفاء بقدوم حارسة. استغرب أهل حارسة

أن يكون الاحتفاء بولادة بنت بهذه الطريقة، فلم يسبق لأحد في المدينة أن احتفل لقدوم بنت بهذا الفرح الكبير. نَصَبَ بيتَ شعر كبيرا في الساحة، ودعا أصدقاءه، وأقاربه، والمساكين والغرباء والحاكم الإداري، ومدير الشرطة، ولم يفته أن يوصي بإرسال طبقٍ لمقام الولي العجمي. امتلأ البيت عن بكرة أبيه، لم أر البرجاس فرحا بهذه الدرجة من قبل، لا عند قدوم أبنائه الذكور الأربعة، ولا يوم تخرجه في الجامعة، ولا يوم نجح في الانتخابات النيابيّة. عندما سألته عن سرِّ فرحه، قال:

- أشياء كثيرة يا شريفة (ظل يناديني شريفة، حتى عندما كبرت)، أولًا لأني كنت خائفا عليكِ، وها أنتِ قمت بالسلامة. ثانيًا، هذه حارسة، هل يكون للحياة معنى من دون الأنثى؟ سأجعلها بإذن الله شيئًا عظيمًا.

وهكذا كبُرت حارسة مدللة عند أبيها وإخوتها، يحيطون بها كالسوار، لم يجرؤ أحد من الشباب على التحرش بها أو الإساءة لها بأي كلمة، رغم إعجابهم الشديد بجمالها، وتمنيهم الاقتراب منها والحديث معها. منحها الله جمالا لا يوصف، كانت مَلاكًا يمشي على الأرض جمالا وأخلاقا، مع ذلك لم تلتفت إلى الشباب على الإطلاق، كان شغفها الرسم، وقد تحقق لها أن تصبح رسّامة كبيرة.

أذكر عندما كان البرجاس يُجلسها على رقبته ويمارس عمله خلف المكتب. وما زلت أحتفظ له بصورة معها وهي على رقبته. سافرتْ معه

وهي طفلة إلى دمشق، كان يُحبُّ دمشق كثيرا، ويقول عنها إنها عاصمة العرب الأولى، منها انطلق العرب يساهمون في بناء الحضارة الإنسانية، وفيها تعلم في الماضي البعيد علماء حارسة وقضاتها وأمراؤها.

لدمشق عنده مذاق يشبه مذاق حارسة في الصباح، الفاكهة والخضار الطازجة تأتي كل يوم من الضياع المحيطة بها، والهواء العليل نفسه يغشى دمشق وحارسة في المساء قادمًا من البحر. وكان يقول: أنت في دمشق لا تتعلم الانتماء للعروبة، بل تتنفسه مع كل شهيق وتُخرج العصبيّة مع كل زفير.

زرنا معا القاهرة، قاهرة المعز لدين الله، قاهرة عمرو بن العاص وصلاح الدين وقطز والظاهر بيبرس وعبد الناصر. مدينة عظيمة تعج بالحركة، رأيت فيها الترام لأول مرة والمترو والقطار، رأيت الشوارع والأبنية الكبيرة. كان يحب عبد الناصر، ويرى فيه أمل الأمة في التحرر من الاستعمار وبناء الدولة العربية الواحدة. سمّى ابننا الأول باسمه، زرنا المتحف المصري، عرفت حينها عظمة التاريخ المصري، وأخذني لرؤية الأهرام، وقلعة محمد علي، وشارع المعز لدين الله الفاطمي، وجامعة الأزهر، وزرنا أسوان والسد العالي، ركبنا القارب في بحر النيل، لأول مرة في حياتي أرى نهرًا عظيمًا، كبيرًا، أمضينا نهارا كاملا في النهر، رأيت النجوع والقرى، والفلاحين وقد شمّروا جلابيبهم وراحوا يسقون زروعهم، رأيت سهوب القمح والأرز والذرة، وشجر الدّوم والنخيل المتسامي

نحو السماء، والجواميس الكثيرة، والبط والإوز والدجاج المرقش، والبيوت الطينية البسيطة. تحدثنا مع الناس، كانوا بسطاء وطيبين وكرماء. كانت حارسة معجَبة جدا والبرجاس يحاول أن يشرح لنا كل شيء، أذكر قوله: «تُمثّل مصر دومًا قيادة الأمة العربية والإسلامية، لا يصلح حال الأمة إلا إذا صلح حال مصر»، وكان متفائلا، لكنّ كل شيء تغير عندما مات عبد الناصر مبكرًا.

في البداية اعتقدنا أن خليفته سوف يسير على نهجه، عندما اجتاز قناة السويس، وحرّر سيناء منتصرا على جيش الصهاينة، كم كانت فرحتنا، بل نشوتنا، عندما سمعنا عن هزيمة الجيش الذي لا يقهر، إلا أنه فاجأنا بعد ذلك بزيارته للدولة المغتصبة، وتوقيع صلح مع الصهاينة، وفتح سفارة لهم في قلب القاهرة.

عندها تغيّر نهج مصر، اكتأب البرجاس طويلًا، ولم يعد يتحدث. لكن السياسة كانت تسري في دمه، لم يَطل صمته، سرعان ما عاد يجمع السياسيين، ويمضون الساعات تلو الساعات يتناقشون، ثم يتفقون على إصدار بيان أو تنظيم فعالية معيّنة.

وقف مع العراق في حربه الطويلة مع إيران، لكنه لم يزر بغداد، لا أدري ما السبب، لكنه كان يحب العراق أيضا، وهو يعتقد أن القاهرة ودمشق وبغداد ثلاثة مدن خالدة يمكن أن تحمل حلم العرب.

عندما أُعيد إحياء البرلمان، ترشّح عن حارسة وأصبح عضوًا فيه، كان يصر على أن يوصل صوت الحق، ولم يتوقف عن الدعوة للوحدة العربية، ووحدة القوى الوطنية لصد العدوان الصهيوني على البلد، ودعم إخوتنا في فلسطين من أجل تحرير أرضهم.

عندما كبرت حارسة، ورغبت في السفر إلى إيطاليا لدراسة الفنون حزن كثيرًا، قال لها كلمتين قصيرتين ثم اختفى، إذ لم يحتمل مواجهتها، ربما ذهب إلى غرفته ليبكي وحيدًا حتى لا يرى دموعه أحد، لم يكن يحب أن يراه أحد في لحظة ضعف. قال لها: «أرجو ألّا تنسَيْ أنك عربية، ابنة حارسة، بكل ما يعني ذلك من معنى».

ولم تُخيّب حارسة أمل أبيها، كانت مجتهدة جدًّا، بذلت كل جهدها حتى تكون فنانة متميزة، وقد اهتمت أن تعكس أعمالها بيئتها وبلدها وأهلها، وكانت ناشطة ثقافية وسياسية؛ إذ كانت تشارك في كافة الفعاليات المناصرة للقضايا العربية، وكانت حريصة على أن توصل للجمهور الإيطالي رسالة إيجابية عن ثقافة العرب وتاريخهم، وعن حارسة بشكل خاص، وهذا ما زاد من إعجاب البرجاس بها، حتى أنا لم أستطع أن أتعامل معها على أنها فتاة صغيرة، بل تعاملتُ معها على أنها صديقة، وهذه حقيقة، إذ عندما يكبر الإنسان يذهب أكثر الأصدقاء كلٌّ في طريقه، وكلٌّ بانشغالاته، ولا يبقى له أصدقاء إلا أفراد عائلته. أستطيع أن أتحدث معها بكل شيء، حتى باتت مستودع أسراري.

المظاهرات

حارسة لن تصمت، حارسة تستعد لجولة أخرى.

البرجاس بن محمد

حارسة..

منذ أصيب أبي لم أفارقه، أنا التي لم أشبع من رؤيته وحنانه، إذ أمضيت سبع سنوات في الغربة تعلمت فيها الرسم في إيطاليا. تحدى أبي الجميع وشجعني ودعمني لدراسة الفن، ولقي جراء ذلك الكثير من الإعراض عنه، وحتى الغمز واللّمز، لكنه كان يواجه ذلك بالتجاهل، وكان يردّد: «حارسة أصيلة، أنا أثق بها، وأثق بعقلها، وموهبتها، فلماذا لا تحصل على فرصة الدراسة؟ نحن لسنا فقط للطب والهندسة، بل يمكننا أن نقدّم شيئا في الفن». كلماته تلك كانت تمدني بالثقة والعزيمة، وعندما سافرت للدراسة، لم أنس مهمتي الأولى؛ أن أتعلم الفن على أصوله، وعلى يد أساتذة مرموقين، وأن أنهل من تجارب أعرق بلد في الفنون الكلاسيكية لأبرر ثقة أبي، وأكون فنانة تليق بحارسة وأبي الذي يعشقها، فالمعرض الذي أعددته عن وجوه حارسة، هو تجسيد لحلم أبي.

كنت أجلس على كرسي إلى جانب سريره، أمسك يده وأحدثه بكل شيء، بآخر الأخبار، وقفشات الصغار، وعن لوحاتي، ووجوه حارسة.

يقولون إن محادثة الشخص في غيبوبته تسرّع في استفاقته، وكنت أدقق في ردود فعله. لم تكن لديه انفعالات وكان يبدو هادئا ويَخرُج نَفَسُه منتظما، لكني لم ألتقط منه ابتسامة أو إيماءة. حدثته اليوم عن أبناء جيله وأصدقائه القدامى: باتع الخشمان صاحب مقهى الخشمان، وعبد الرزاق السّقا، وعتيّق الجزّار، والمهندس أمجد ومصطفى وجريس وسهام وروز، والعم مسلّم، ورقية ابنة شمهروش، والولي العجمي، وعويّد بن صادق، وعبد الحميد بن عبد العزيز، وأبي أحمد الربان بائع الفلافل، وأبي إلياس ميكانيكي الجرّارات الزراعية، والصيدلي يوسف فرجان آرتريان، وهيلانة، والشيخ محمد الخطيب، وطبيب الأسنان الدكتور صالح.

حدثت أبي الراقد في سرير الشفاء عن معرضي، وأنني رسمت لكل شخصية من هؤلاء لوحة خلفيتها جزء من القلعة، وإذا ما جمعت تلك اللوحات ظهرت القلعة بأبراجها وأسوارها شامخة. أردتُ أن أبيّن أن أبناء حارسة هم القلعة، حجارتها الصلبة، منعتها وقوتها، وأن القلعة هي أبناؤها المزروعون بأرضها، الذين لا يستبدلون أي أرض أخرى بها.

أذكر أنه في البداية لم يفهم لوحاتي التعبيرية تلك، ولم يتفاعل معها، لكنه كان خلسة يذهب إلى مرسمي ويتوقف أمام إحداها متأملا ويقول ممازحا:

– الله يلعن شيطانك، والله هذا الشكل فيه شيء من باتع الخشمان. الآن أدركت لماذا جعلت وجهه مثلثا، وجذعه مثلثا، إنه فعلا

كذلك، أذكره جيدا، عندما كان يثبّت قدميه في الأرض يتحول إلى وتد مزروع، فلا يستطيع أحد أن يزحزحه من مكانه، حتى لو اجتمع عليه بضعة أشخاص. الله، الله عليك يا باتع، لقد انتزعوا منك المقهى، اللعنة على الفلوس كيف تدمّر البشر، تدمر النفوس.

لكن أكثر لوحة أعجبته كانت لوحة أبناء حارسة التي عبّرت فيها عن الروح الجمعية لأبناء المدينة، فهم جميعًا يتحولون إلى كتلة واحدة مثل قلعتهم عندما يكون هناك حدث جلل. لطالما حدثني أبي عن تظاهراتهم ضد حلف بغداد في الخمسينيات، والمظاهرات المطالبة بتحرير فلسطين، وتلك المناهضة لمشاريع التسوية، وضد زيارة رئيس مصر إلى دولة الاحتلال، كان يتحدث عن تلك الأحداث بشغف كأنها حدثت بالأمس، يتذكر تفاصيلها، بدءا من التحضيرات، والمشاركين، والكلمات التي ألقيت، والمواجهات مع الشرطة. كان أبي حينها في نهاية العقد الثالث من عمره، طافحا بالحماسة، وهو الأجرأ بين أترابه. كان باتع الخشمان يرفعه على كتفيه ساعة كاملة دون تعب، ليتولى أبي الهتاف ضد الحلف والاستعمار، وحمله باتع الخشمان وعبد الرزاق السقا على كتفيهما في الانتخابات النيابية عام 1967، ولم يُنزلاه إلا على كرسي البرلمان. كان يقف أمام اللوحة، ويقول متحسّرا:

- سقى الله تلك الأيام، أحب هذه اللوحة، إنها فعلا تعبّر عن أبناء حارسة، أنا هكذا أحسّهم؛ كتلة واحدة، وصوتًا واحدًا، وحنجرة واحدة، رؤوسهم مشرئبة للأعلى.

اللوحة نفسها كانت أكثر ما أعجب المخرج فراس الذي تعرفت عليه عندما جاء يصور فيلما عن أبي. حين رآها تأملها طويلا، ثم قال لي:

- لقد ألهمَتْني، يا حارسة، فكرة فليمي التالي، نعم، أفكر بعمل فيلم يكون صنوا لمعرضك، وسأسميه أيضا أبناء حارسة. كنت مثلك أيضًا أجمع مادة عن العديد من وجوه حارسة، بقي أن أصوّرهم في مظاهرات حقيقية.

توافد أبناء حارسة لزيارة أبي منذ حادثة الاعتداء عليه، ولم يفارقوه، لكني اليوم وحدي، لا أعرف السبب، ألأنه الجمعة والناس يذهبون إلى المسجد؟ حتى إخواني أو أبناؤهم لم يحضروا. لم أنزعج، فقد انتهزت الفرصة لأكون في خلوة مع أبي، أبثه مشاعري وأفكاري، ويبقى لدي أمل كبير في أنه سيفيق، أريد أن أكون أنا أول من يراه، سوف أصرخ من الفرحة، سآخذه بالأحضان، ولن أفارقه أبدا. لتذهب باريس إلى الجحيم، ساعة إلى جوار أبي أهم من الدنيا وما فيها.

حدثته عن الولي العجمي وكيف رسمته، مع أنني لم أره، كما لم يره أي أحد من الأحياء. رسمته من خلال الفكرة التي كونتُها عنه، فهو الولي مجهول الأصل، الذي يقول المسلمون إنه شخص صوفي منهم، ويعتقد

المسيحيون أيضا أنه شخص منهم، ويقول خوري اللاتين في حارسة أنه فارس صليبي مهرطق، وقع عليه حرمان البطرك في القدس ونُفيَ إلى هذه المدينة عقابا له. عاهد نفسه أن يكف عن إيذاء المسلمين ومحاربتهم، وأصبح أكثر تساهلا مع العرب المسيحيين من طائفة الروم الأرثوذكس، وأصبح يبشّر بالإله الواحد، وأن الأنبياء وسطاء ليعرف الناس منهم الرب الذي يعبدونه. وقد أشاع لورد حارسة الصليبي في ذلك الوقت بين أوساط الصليبيين أن هذا الفارس المهرطق قد اعتنق دين «الكفار»؛ يقصد الدين الإسلاميّ، لذا حين وفاته لم يدفن في مقابر المسيحيين ولا في مقابر المسلمين، إذ دفن في غرفته التي كان يسكنها من غير أن تُحدّد ديانته. أهل المدينة لا يهمهم كثيرًا إن كان مسيحيًّا أو مسلمًا، إنه رجل صالح لا يدعو إلى فتنة ولا إلى حرب أو قتل. فاتخذوا من مكان دفنه مقامًا يقدمون فيه الطعام للمحتاجين ويشعلون فيه نذور الشموع، وأطلقوا عليه مقام الولي العجمي.

لكن العم مسلّم كان يقول قبل أن يصمت صمته الأخير: الولي العجمي مسلم أندلسي من أصول أمازيغية، يلحن بعض الشيء عندما يتكلم العربية مع الناس، لكنه يقرأ القرآن بالنطق الصحيح الكامل. جاء في وقت متأخر بعد أن غادر الصليبيون المنطقة بثلاثمئة عام تقريبا. هرب من بطش إيزابيلا ملكة قشتالة، وفرديناند ملك أرغون. جاء إلى المدينة وسكنها ومات فيها. كان ينوي مواصلة المسير إلى مكة مشيًا على قدميه.

فهو مسلم الديانة صوفي المذهب، أحب حارسة، وأحب أهلها، فتريث فيها إلى أن وافاه الأجل. دفنه السكان في مكان إقامته، وأطلقوا على ضريحه مقام الولي العجمي. وواصلوا تقديم الطعام لمن يزوره من الغرباء وتوفير الحماية والأمن لهم.

ويضيف العم مسلّم: في حضرته كانت تُعقَد التحالفات بين العشائر لتحمي بعضها بعضا في الزمن الذي كان فيه الغزو على حارسة من العشائر البدوية التي تسكن في الجوار عملًا مشروعًا. اتخذ الضعفاء من مقامه مكانًا يجتمعون فيه، ويبرمون اتفاقيات تحميهم. أصبح المقام مأوىً لمن تقطعت بهم السبل، ينامون فيه ويتعاهدون على حماية بعضهم بعضًا، فتنشأ بينهم علاقات وتبادل منافع إلى أن يأتي فرج الله.

أما أهل حارسة، فلا يبتهلون للمقام ولا يتمسحون به، فهم يرون فيه قبر رجل صالح متعبد صوفي عالم مسالم لا يحب العنف. الدين في هذه المدينة مجرد من كل الإضافات والرتوش التي أضيفت إليه من الأتباع على مر العصور.

أما أنا فقد رسمته شخصا مرتفع القامة، بوجه يشبه وجه المسيح عيسى بن مريم، لكنه يرتدي عمامة خضراء عليها لفة بيضاء، وجُبّة خضراء فوق قلنسوة بيضاء، وجعلته واقفا داخل قبة خضراء عالية شفافة.

فجأة سمعت دوي أصوات هادرة، أسرعت إلى النافذة، أزحت ستارتها لأتبين مظاهرة حاشدة في الشارع، فتحت النافذة، لأرى وجوها

حادة الملامح، غاضبة، أصواتهم هادرة، فيهم الشيوخ والشباب والفتيان والأطفال، رأيت أسامة وكريم وإبراهيم إخواني، والبرجاس الصغير، بحثت عن ناصر فلم أجده، رأيت باتع الخشمان والربان أبا أحمد، وفي ذيل المظاهرة كان العم مسلّم يمشي شارد الذهن، ورأيت المخرج فراس يحمل كاميرته متنقلا بين الصفوف تارة، وخارجها تارة، وتارة يهتف مع الهاتفين.

عدت بسرعة إلى أبي لأخبره، وجدته قد فتح عينيه وافترّت شفتاه عن ابتسامة فيها كثير من الفرح. أُقسم أنه ابتسم. ناديت عليه وأنا أكاد أن أطير من الفرح:

- أبي، أبي، إنهم يتظاهرون ضد الحكومة وصندوق النقد الدولي.

حاول أن يفتح شفتيه ليقول شيئًا، لكنه عاد وأغمضهما دون أن ينبس ببنت شفة، ثم انسحبت ابتسامته كقمر اختفى خلف الغيوم، لكن وجهه بقي هادئا.

أهل حارسة

من الضروري توثيق ما لا تستطيع قوله ،
وخاصة تلك القضايا التي لا ينبغي كبحها.
جاك دريدا

المخرج فراس..

مخرج الأفلام الوثائقية لا يستغني عن كاميراته دوما، إنها عُدَّتُه وعتاده، لأن اللحظة المُهمة لا يمكن استعادتها إن فاتت. لطالما لفتت انتباهي لوحة الرسامة حارسة: «أبناء حارسة»، لوحة انطباعية، فيها إحساس عالٍ. حارسة أحبت أبناء حارسة المدينة، أحبت تعابير وجوههم الصارمة، ونظرات عيونهم الحادة التي تخفي خلفها قلوبا طيبة، ونفوسا شهمة وأنفة عالية. هي استطاعت أن تجمعهم في لوحة جسدت انطباعها عنهم، أما أنا فأردت أن أراهم بعين كاميرتي. مضت سنوات طويلة غاب فيها أهل حارسة عن الشارع، لم أرهم يتظاهرون كما تظاهر آباؤهم في الخمسينيات ضد حلف بغداد، أو بعد حرب حزيران رفضا للهزيمة ولمشاريع التسوية واعتداءات دولة الاحتلال وقصف المدن.

اليوم تحقق حلمي، تلك المسيرة الهادرة ضد الحكومة وصندوق النقد الدولي، والفساد. كنت قادرًا على تصوير الوجوه عن قرب، وإبراز

حناجرهم المفتوحة على اتساعها بالهتافات، وعيونهم الغاضبة، وقبضاتهم المهددة. صوّرت الوجوه المتعددة والمتنوعة: الشيوخ والشباب والفتيان، العمال والتجار والفلاحين، أشخاصا بلباسهم الشعبي، وشبابا بآخر ما وصلت إليها الموضة، حزبيين من التيارات الحزبية المتعددة: يسار، وإسلاميين، وقوميين، والنساء من شرفات المنازل يحيين المتظاهرين بالزغاريد (حقيقة لا أعرف ما علاقة ذلك بالاحتجاج على الحكومة وسياساتها وفسادها، غير أنه شكلٌ خاص من التعبير).

في المظاهرة صوّرت الشيوخ الذين كانوا يومًا قادة المظاهرات في الخمسينيات وكانوا شبابا: باتع الخشمان، الربان أبا أحمد، والدكتور صالح، الدكتور ميشيل، المهندس أمجد، والمحامي مصطفى، حتى العم مسلّم لم يغب عن المظاهرة، كان يسير على طرفها وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة، كان يسير وكأنه يحلم ويصف ما يراه في الحلم. سجّلت كل ذلك، صوَّرته وهو يتلو رؤاه: السجن.. السجن، العرس.. العرس، العم مسلّم لا يحاور، ولا يجيب على أي سؤال، لكنه يقول عبارته تلك ويختفي.

ولم يفتني أن أصوّر رجال الشرطة الذين كانوا يقفون على قارعة الشارع متأهبين، يُبدون جدّية تجاه ما يحدث أمامهم، متحفزين لأي استفزاز، ومن الواضح أنهم مشدودون ومتوترون، وربما كانوا خائفين من

استفزازات المتظاهرين، ربما ينتظرون حتى يهتف أحدهم ضد السلطة والنظام حتى ينهالوا عليه ويفرقوا المتظاهرين، لكن المتظاهرين فوتوا عليهم الفرصة. الرائد حابس لفت انتباهي، إنه لا يشبه رجال الشرطة الآخرين، لم يكن مشدودًا أو متوترًا، وكان جميع من يمرون من أمامه يحيونه وهو يرد بود، حتى إن بعضهم كانوا يصافحونه، فهو ابن حارسة، والجميع يعرفونه ويحترمونه، وهو بدوره يحترمهم. صوَّرتُه عن قرب، فهو وجه من وجوه حارسة. عندما سألته وأنا أصوّره عن رأيه بما يراه، لم يفته أن يحتج على تصويره، قال بأدب:

- أرجوك لا تصوّر، أنا هنا لأحفظ الأمن، ولا شأن لي بالمظاهرة.
- لكنك ابن حارسة، وأبناء حارسة لا يختلفون على العداء للفساد.
- قلت لك أنا في وظيفة رسمية، وحسب.

اكتفيت بالصورة التي أخذتها، وبالحوار المقتضب.

صوّرت الربان أبا أحمد بائع الفلافل، تلك الشخصية الغريبة، الذي جرّد جنديين من جنود الاحتلال الإنجليزي من سلاحهما، ثم ترك مركبه راسيا على شاطئ البحر الميت متسلقا الجبال نحو حارسة، وأبا إلياس، ميكانيكي الجرارات الزراعية الذي وفد إليها مع زوجته من دير الروم الأرثوذوكس في القدس، والصيدلي يوسف فرجان آرتريان صاحب النظارة الرقيقة على عينيه والشعر المصفوف بعناية شديدة، الذي وُلد لأبوين أرمنيين هاجرا من الرها بين الحربيين العالميتين. صورت أمجد

ومصطفى وجريس الذين قبعوا في السجن الصحراوي ثماني سنوات وفقا لقانون مكافحة الشيوعية، وروز وسهام وباتع الخشمان والعم مسلّم.

أعدت تصوير مقهى باتع الخشمان الذي تحول إلى مصرف تجاري استثماري، يوجد في داخله شباب صلعان مفاريع، وصبايا جميلات أنيقات، حلّوا محل أهل حارسة بحَطَّاتهم متعددة الأشكال، وأثوابهم متعددة الألوان، ووجوههم السمراء المشدودة من الشمس. أحضرت طاولات خشبية قديمة وكراسي الخيزران، دعوت الأحياء من رواد المقهى، وصورتهم وهم يدخنون الشيشة ويلعبون المنقلة وطاولة الزهر، وعلقت على الجدران الصور نفسها التي كان الخشمان قد علقها، ولا أعرف كيف توافق على ذلك: صورة للملك في ريعان شبابه، والشيخ عزالدين القسام، ورسم للقائد صلاح الدين الأيوبي وآخر للظاهر بيبرس، وصورة للقدس، وأخرى للكعبة المشرفة، وصورة لفتاة شرقية جميلة كانوا يطلقون عليها فاطمة المغربية، وصورة قديمة لكوكب الشرق أم كلثوم، وتشي جيفارا. خلطة عجيبة، لكنها تفصح عن شخصية صاحبها الذي يُجمَع على ما يبدو أنه متناقض، لكنه منسجم مع نفسه.

لم أحتج إلى تدريب أو توجيه المشاركين، تركتهم يتصرفون على سجيتهم، تصرفوا كما لو أنهم فعلا في مقهى الخشمان القديم، وكانت فرصة أن يلتقوا بعد سنوات طويلة باعدت بينهم، كانوا فرحين باللقاء، لعبوا وضحكوا كثيرا، تمنّوا لو يعود المقهى، ومنهم من اقترح استعادة

المبنى القديم وإعادته مقهى، تحدث الجميع منهم عن الموضوع بالحماسة نفسها، كأنهم تواقين إلى ما يعيد جمعهم وتوحيدهم بعد أن فرقتهم مظاهر الحياة الاستهلاكية، تداولوا الذكريات وترحّموا على أرواح الأموات.

كان للسقا نصيب كبير من الذكريات، تذكروا كيف صفع أبا الشامة بسبب مطاردته للشباب الحزبيين، ذكروا الحادثة بتندر خاص وهم يضحكون، كان كل واحد منهم يذكر تفصيلا معينا وكأنهم مؤلفو عمل واحد:

- أعتقد أن أبا الشامة رأى نجوم الظهر إثر الصفعة، أنا أذكر كيف أُخرس لسانه وزاغ بصره ثم سقط أرضا.
- حاول النهوض والوقوف من جديد، لكنَّ ساقيه خذلتاه.
- حتى إنه لم يتمكن من إشهار مسدسه الذي يشده إلى جنبه.
- هل رأيت عصاه التي لم تكن تفارقه كيف راحت تتدحرج بعيدا عنه وكأنها تتبرأ منه، وكيف طارت حطة رأسه الصفراء، وعقاله الأسود بعيدا؟
- طبعا، لأنه لا يليق به ارتداء العقال فوق هذه الحطة في حارسة.
- لذلك لم نره في اليوم التالي، يبدو أنه أدرك أن لا مكان له في حارسة، فجمع أشياءه في ليل، واختفى.

- طبعا، فهو لن يجرؤ على تقديم شكوى بحق عبد الرزاق السقا، فسيكون ذلك عارا عليه.

قال باتع الذي انضم للحوار:

- سألت السقا مرّة مِمَّ يخاف، فأجاب أنه لا يخاف من شيء إلا الموت، ولمّا كنّا سوف نموت جميعا لا محالة، فهو لم يعد يخاف من شيء على الإطلاق؛ لا من حكومة، ولا من وزير، ولا من أمير، ولا من متصرف، ولا من ضابط، ولا من عسكري، ولا من حرامي، ولا من لص، ولا من أزعر من زعران المدينة. لكنه يخاف فقط من الموت، فهو النهاية الحتمية، وهو المجهول المخيف الذي لن نعرف ماذا وراءه.

ثم ضرب كفا بكف، وهو يردد:

- رحمة الله عليك يا عبد الرزاق، لم يمهلك القدر طويلا، توفاك الله بعد تلك الحادثة بأعوام قليلة، لم يكن أحد يعرف بمرضك، ورغم فقرك كنت تتصدق بما يرسله لك أخوك المغترب على الفقراء، وكنت حريصا على أن تملأ زير الماء في مقام الولي، وتضع فيه الطعام يوميًّا، ولم تكن تخاف من الفقر، تصرف كل ما تملك، فيرزقك الله من حيث لم تكن تحتسب.

كان باتع متواضعًا جدًّا، مصرًا على أن يتذكر صديقه عبد الرزاق السقا كل حين، ويدخل على خط الحوار ليذكر شيئا فاته: كان -رحمة الله

عليه- يحب حارسة ولا يتخيل نفسه يغادرها، فهو يستجير بالولي العجمي، الذي كان جاره، ومنذ كان طفلا كان يحمل قربة الماء بعد أن يملأها من العين على ظهره ويصعد بها طريق الجبل حتى يوصلها إلى المقام ويفرغها في جرته، لكن بعد أن وصلت المياه بالأنابيب المعدنية إلى كل بيت في حارسة، لم يعد ملء الجرة في المقام عملًا بطوليًّا.

ظلّ باتع الخشمان، طيلة حياته، يصرّ على ارتداء ملابس أنيقة، وحذاءً نظيفًا، يرتدي البدلة وربطة العنق، ويعتمر حَطَّةً حمراء «شماغ» لا تفارق رأسه أبدًا، تماما كما هو اليوم، وكان الناس يخشونه لقوته (رغم تقدمه بالعمر، إلا أن جسده ما زال مشدودا). كان يجلس خلف طاولته، وخلفه على الجدار معلقة لوحة بإطار خشبي مذهب، كُتب فيها بخط جميل «مقهى حارسة لصاحبه باتع الخشمان. تأسس سنة 1945»، موقعة باسم خطّاطها: العم مسلّم.

ذاكرة لا تنسى

إذا كان الناس يحبونك، فأنت جيد
وإذا كانوا يكرهونك، فأنت أفضل.
جوزيه مورينو

العقيد أبو الشامة

لا أستطيع أن أحدد شعوري عندما أخبرني العميد طه بتعييني مديرا لشرطة حارسة، تلك المدينة التي غادرتها منذ أكثر من ربع قرن، مهانًا غاضبًا. لطالما حاولت أن أزيل المدينة ورجالها من ذاكرتي، حتى أخفف من شعوري بالإهانة، ولأحفظ قلبي من الغضب. لم يكن بإمكاني رفض التعيين، فقد آن الأوان لأن أنتقل إلى منصب يليق بخدمتي الطويلة، لكني عندما عدت إلى منزلي انثالت عليّ الأفكار والذكريات. بدأت أستعيد الوجوه والأسماء والتفاصيل. لا أعرف لماذا برز لي في المقدمة البرجاس، فهو أول من كسر هيبتي أمام أهالي حارسة عندما اعترضني وهددني. وما الصفعة التي تلقيتها من عبد الرزاق السّقا إلا نتيجة لحركة البرجاس معي. بل إنهما لا يقلان عن بعضهما سوءا. إني أكرههما، وأتمنى ألّا أراهما على وجه الأرض. السقا مات منذ زمن بعيد، أما البرجاس فما زال موجودا.

أنا متأكد من أن البرجاس شيوعي ملحد لعين، رغم نفي الحاكم الإداري عنه هذه الصفة، لكن لماذا يكون مدافعا عنهم، وكأنه زعيمهم وقائدهم؟ لقد كان عقبة كبيرة أمام عملي، فقد كانت مسؤوليتي متابعة الشيوعيين الذين يشكّلون خطرًا على النظام والمجتمع بأفكارهم المستوردة والغريبة والخطيرة. إنهم يدعون إلى مصادرة أملاك الناس، وقلب نظام الحكم وإقامة نظام شيوعي، ويدعون إلى حرية المرأة، هل نقبل هذا؟ وزعيمهم الكبير يقول لا إله والحياة مادة. كيف تُقبل هذه الأفكار لدينا؟ صحيح أن البرجاس كان يصلي في المسجد، إلا أنني أعتقد أن حركته تلك هي من باب التقية، وإلّا، لماذا يدافع عن الشيوعيين؟

حسمت أمري. بدأت بالبحث عن منزل أسكنه في حارسة. اخترت أن أكون قريبا من مبنى السراي. لم يعجبني البيت الذي كان يشغله سلفي، من حقي أن أسكن بيتًا أحدث. فكّرت في أن أزور الحاكم الإداري، يجب أن تكون علاقتي به وثيقة وطيبة، أنا أعرفه شخصيًّا، لكن من حيث المبدأ نحن لا يستغني أحدنا عن الآخر. وكذلك رئيس البلدية، ورئيس غرفة التجارة، وكل المسؤولين. لا بد أن تكون علاقتي جيدة مع الجميع، لن أسمح للبرجاس بأن يعزلني، ويجب أن أفرض هيبتي. لا أعرف ما مصير الشيوعيين الشباب والحزبيين الآخرين الذين كانوا يسببون لي المتاعب في الماضي. لا بد أنهم كبروا، ترى هل بقوا على مبادئهم أم أنهم اهتدوا؟ لقد تغيرت الأمور كثيرا منذ ذلك التاريخ. جمال عبد الناصر مات، ولم

تعد خطاباته تثير الشباب عبر الإذاعات، وانقلب خلَفُه على إرثه؛ حقق انتصارا على الإسرائيليين، وعبر القناة واخترق التحصينات التي أقاموها، لكنه فاجأ الجميع بزيارتهم وإعلان الصلح معهم. فلسطين ضاعت، وبريطانيا لم تعد بحاجة إلى إنشاء أحلاف، والأنظمة العربية من انقلاب إلى انقلاب، ومن خلاف إلى خلاف، حرب أهلية في لبنان، والأردن فك ارتباطه بفلسطين، وحدثت انتفاضة كبيرة في فلسطين، والحرب الأهلية في لبنان ما زالت مستمرة، والحرب بين العراق وإيران هدأت للتو. انشغالات الناس اليوم غير انشغالاتهم بالأمس. الجميع يبحث عن مصالحه، لا وجود للمثاليات والأحلام. كثير من أصحاب الأفكار الكبيرة تخلّوا عنها، فقد وجدوها غير ذات جدوى، وشعروا أنهم أضاعوا سنوات من أعمارهم يطاردون الأوهام؛ الشيوعيين والقوميين والإسلاميين. الناس عندنا لا يمكن أن يتقبلوا الأفكار الشيوعية، وأحلام الدولة العربية الواحدة تبقى أحلاما. اليوم أبناء كل بلد يفكرون بأنفسهم فقط، الدول الغنية لا تهتم بالوحدة لأنها تعتقد أن الدول الفقيرة تطمع بخيراتها، وأبناء الدول الفقيرة يعتقدون أن لهم حقًّا، على الأقل كونهم إخوة.

أما الإسلاميون فيحلمون باستعادة دولة الخلافة. أنا لا أعرف كيف يفكرون، هل يمكن إعادة الماضي؟ إذا كان أبناء البلد الواحد غير موحدين، فكيف يمكن أن نوحّد أكثر من مليار مسلم يتحدثون عشرات

اللغات، منهم من يعيش في ظروف القرون الوسطى، ومنهم من يعيش برفاهية سلاطين حكايات ألف ليلة وليلة، يجمعهم اسم الإسلام ويختلفون حول كل تفصيل فيه.

لا أستطيع أن أتخلى عن أفكاري هذه وأنا مقبل على عمل جديد، رغم أن عملي الجديد لا علاقة مباشرة له بالسياسة. أنا أحتاجها حتى أعرف كيف أتعامل مع الأشخاص، ولا بد أن أبدي نصيحة للحاكم، أنا لن أتخلى عن هذا الدور.

السياسة في دمي، والدفاع عن النظام قضيتي الحياتية، فهو سرّ وجودي وما أنا عليه الآن، من بعد أن كنت يتيما، مضطهدا من أولاد الحارة ومن طلاب المدرسة. حين بلغت السادسة عشرة انتشلتني الدولة من الحضيض، لألتحق بسلاح الفرسان، ثم أصبحت مخبرًا، منحني ذلك القوة والثقة والجرأة. لم أكن أخاف شيئًا أو أحدًا، وكنت أدخل العراكات دون اعتبار لربح أو خسارة، فأنا دائما رابح حتى لو تعرضت للضرب.

أذكر أول مرة كسرتُ فيها عنق هرة. كانت لا تتوقف عن المواء، لعلها فقدت أمها التي ربما دهستها سيارة في الشارع، أو أصابها طفل بحجر فأرداها قتيلة، أمسكتها ولويت عنقها فتوقفت عن المواء. قمت بتلك الحركة ولم أحس بقلبي حينها، فقد كان حجرا. بعدها صرت أتجرأ على ربط خرق مشتعلة بذيول القطط وأتركها تُجَن وتدور حول نفسها وهي تحترق.

أما عندما اعترضني البرجاس وهدّدني فلم أخف منه، بل لجمني الذهول، فلم أعرف ماذا أفعل، وبعد أن غادرت صار الغضب يفور في داخلي، ويصعد إلى رأسي، وقد راح دماغي يتبخر. وما حدث مع السقا كان مفاجأة، وقد حسبتها جيدا، فدماغي اشتغل سريعا في تلك اللحظة. قرّرت الانسحاب والاختفاء. بقائي أو التصدي له في تلك اللحظة خسارة. لم أكن أتخيل أن تكون قوته بتلك الدرجة، كان شخصًا ليس لديه ما يفقده أو يخسره. عندما عدت إلى المنزل بدأت التفكير، وظهرت عندي تطورات استفدت منها لاحقا: الانتقام بهدوء.

غادرت حارسة مهزومًا في تلك الليلة التي صفعني فيها عبد الرزاق السقا وسقطت على الأرض. ما زلت أذكر كيف تلقيت صفعة عبد الرزاق على وجهي، أسودّ الفضاء من حولي، تأرجحت جدران الحوانيت في السوق، وانخسفت الأرض تحت قدميّ، وسقط قلبي في تجويف جسدي فهويت على الأرض. جفّ اللعاب في فمي، فأصبح أكثر لزوجة ويصعب ابتلاعه. حاولت النهوض والوقوف من جديد، خذلتني ساقاي، وزاغت عيناي، لم أر عبد الرزاق السقا، لكنْ رأيت الولي العجمي يقف أمامي شامخا، وأنا جسم ضئيل متهالك يسقط أمامه. رأيت غربانا كثيرة تحوم في سمائي، وسمعت صهيل خيول وزغاريد أمهات الشهداء. لم تطاوعني يدي فتشهر السلاح الذي أشده على جنبي، رأيت عصاي التي رافقتني كل هذا العمر تتدحرج بعيدا عني وكأنها تتبرأ مني، وحطة رأسي الصفراء

وعقالي الأسود رأيتهما في ركن آخر. إنها حقا ليست مدينة، لكنها بركان خامد سرعان ما ينفجر في وجه من يعاديه.

فكرت حينئذ أنه لم يعد لي مكان هناك، وعليّ أن أجمع أشيائي في صندوقي الخشبي، وأغادر في ذلك اليوم قبل طلوع فجر اليوم التالي.

غادرت حارسة في مساء ذلك اليوم، آسفًا لحالي وكرامتي التي أُهدرت كما يُدلَق الماء القذر بعد الغسيل.

وهأنذا أعود إليها اليوم منتصرا، ومديرا لشرطتها.

ضوء في نهاية النفق

كل مشروب لا تراه العين ليس مشروبًا.

العم مسلّم

المحقق حابس..

عندما جاؤوني به كان كالثور الهائج يتفلت من أيدي الشرطيين اللذين يمسكان به. طلبت منهما أن يفلتاه ويغلقا باب المكتب. هدأ قليلا، تركته دون أن أنظر في وجهه حتى هدأ تماما، رفعت رأسي ونظرت في وجهه بعيني عقاب، وطلبت منه ساخرا أن يخبرني عمّا حدث، أجاب على الفور دون تردد:

- سيدي، شتم ذلك الكافر الذات الإلهية، ونحن في رمضان، لم أتحمَّل.

قلت بحزم، ونهضت من خلف المكتب:

- وأنت قرّرت أن تطبق القانون بنفسك، ألا توجد دولة؟
- لكنه، سيدي، شتم الذات الإلهية، ولن يحاسبه أحد.

ضربت المكتب بكفي بقوة، وصحت به:

- وهل تعتقد أنك أقوى من الله؟

أسقط في يديه، أو أنه خاف فلجم لسانه. أمرت الشرطيّين أن يأخذاه، وقلت:

- سوف تبقى موقوفا حتى يُسقط المجني عليه حقه، لقد هشمتَ وجهه، وهو في العناية المركزة حاليا.

أسقط المجني عليه حقه بعد وصول جاهة من أهل مصعب إلى عائلة المجني عليه، وأدانوا تصرف ابنهم، واستنكر الآخرون موقف ابنهم وشتمه للذات الإلهية. حصل الصلح، وخرج مصعب من السجن، لكنه لم يتوقف عن التردد على المركز الأمني. ظل يراجع المركز الأمني بطلب من المدير أبي الشامة. عندما سألته عن السبب، قال بكل وقار بوصفه صاحب خبرة طويلة:

- مثل هؤلاء الأشخاص لا يجوز أن تتركهم، يجب أن تبقى على تواصل معهم، لأنهم خطرون، فأنت لا تعرف بماذا يفكرون.

لم أتوان أن أسأل من باب الفضول، ولأن الشك راودني:

- وماذا وجدت فيه، سيدي؟
- إنه شاب متعصب دينيا، يبدو أنه متأثر ببعض الدعاة السلفيين القادمين من الخارج، الذين ينشطون في الآونة الأخيرة.

ما لفت انتباهي هو أنه يصاحب أخي ورد، وقد رأيته مرة يخرج من بيتنا، عندما سألت ورد عنه، قال إنه صاحبه، وإنه يحاول أن يهديه إلى الدين. سألت ساخرا، وأنا أعرف أن وردا لا يقيم الصلاة:

- إن شاء الله أن تكون اهتديت؟

أجاب وهو يداري ارتباكه:

- ربنا يهديني.

تعلمت من قراءاتي وتجربتي أن يكون المحقق شكّاكا. علاقة ورد بمصعب ليست بريئة، ولا علاقة العقيد به. ما يربط هؤلاء كان أحجية صعبة، لا يمكن حلها بقراءة المنْدَل. لدي إمكانية أن أستدعي مصعب وأسأله مباشرة وبصرامة من باب الحرص على مصلحة أخي:

- مصعب! ماذا تريد من ورد؟
- أنا لا أريد شيئا من أحد.
- والعقيد؟
- ليته يعتقني لوجه الله.
- إنك تقول ألغازًا.
- لا ألغاز في الموضوع، العقيد يُجري معي كل مرة تحقيقا، ويهددني تهديدات مبطّنة. يسألني عن جماعة الدعوة، ويسألني لماذا أكره الشيوعيين، وإن كنت مستعدا لمقاتلتهم.
- وورد؟
- ورد برأسه موّال لا يريد أن يفصح عنه.

استعدت كل هذه الأحداث خارجًا من مقام الولي العجمي عندما ذهبت إليه ليساعدني في فهم الحلم الذي حلمته، وفهم فقدان النبّوت من البيت، ذلك النبّوت الذي ربما كان السبب في تهشيم جمجمة البرجاس الذي يرقد في العناية المركزة بين الحياة والموت.

لقاء الخصوم

قوتك ليس بتوجيه الضربات، بل بقدرتك على تلقيها.
فيلم روكي بالباو

العقيد أبو الشامة..

فوجئت باتصال الحاكم وطلبه مني مرافقته لزيارة الشيخ البرجاس في المستشفى. كان هذا الموقف آخر ما يمكن أن يخطر ببالي؛ أي أن أزور خصمي وعدوي منذ أكثر من خمس وعشرين سنة لأعوده. صحيح أنه في غيبوبة، لكن ماذا لو استفاق بوجودي؟ لم يكن من مناص، حاولت التملص، قلت إن لدي ضيوفا لكن الباشا كان صارما:

- الضيوف ليسوا أهم من المسؤولية. الرجل تعرض لاعتداء، والحفاظ على أرواح الناس من مسؤوليتك. يكفي أننا لغاية الآن لم نمسك بخيط واحد من خيوط الجريمة، علينا أن نقوم ببعض الواجب الاجتماعي حفظا لماء الوجه.

حاولت أن أقلل من أهمية الشخص لأثنيه:

- لكن، يا باشا، أراك متحمسا للشخص أكثر من اللازم. في نهاية المطاف هو شخص تعرض لمحاولة اعتداء، ونحن لسنا طرفا فيها، وهو لا يختلف عن غيره من الناس.
- نظام بيك، إنك تتحدث عن شيخ من أهم شيوخ حارسة، إنهم عقلاء البلد، من دونهم لا نستطيع أن ندير شؤوننا. وأنت تعلم أننا نمر بظروف حرجة، والاعتداء عليه في هذه الظروف جعل كل الشبهات تتجه نحونا.

وكان ما لم يكن منه بد. كان باستقبالنا ابنه ناصر رئيس البلدية، وإخوانه، وأخته الفنانة حارسة، ترى هل جاؤوا جميعا ليشمتوا بي؟ هل الحاكم متواطئ معهم؟ لكني تمسكت برباطة جأشي، وكأن شيئا لم يكن. اقتربت من سريره، نظرت في وجهه الذي أمقته، لم يتغير كثيرا، لا أعرف لماذا يُصر بهذا العمر على صبغ شاربه بالأسود، ويُكحّل عينيه بالكحل. ويبدو أن زوجته حريصة على أن تحلق له ذقنه، وتبقيه نظيفًا وبآخر أناقة، وتفوح منه رائحة العود. لا أستطيع إلا أن أعترف بأنه شيخ، له هيبة خاصة، رغم كراهيتي له إلا أنني لا أستطيع أن أنكر أن له هيبة خاصة.

رحب ابنه ناصر بنا:

- أهلا بالباشا، أهلا بالبيك. (ثم وجه كلامه لوالده، وكأنه يعي ما يدور حوله): أبي هل تعرف من زارك؟ إنه عارف باشا، ونظام بيك أبو الشّامة.

لسعة كهرباء أصابتني عند ذكر اسمي، ولا أدري لماذا اتجه نظري فورا إلى البرجاس لأطمئن إن كان يعي ما يدور حوله، افترَّت شفتاه عن ابتسامة فاترة سرعان ما اختفت، نظرت في وجوه الجميع لعل أحدهم التقط تلك الابتسامة، لكن يبدو أنني الوحيد الذي شاهدها. تنفست الصعداء، وكرهت ابنه ناصر، لأنني أعتقد أنه تعمّد ذكر اسمي على سمع والده، إنه بالتأكيد عرف عن قصتي مع والده، فهو ليس صغيرا.

صمتُّ قبل أن أصافحهم، وأنا أدعو (ليس من قلبي) أن يشفيه الله، ويصبّرهم. سألني ناصر بود لم أتوقعه:

- ألا توجد تطورات في التحري، نظام بيك؟
- للأسف ليس لدينا مشبوهون، سألنا الجميع، قالوا إنه ليس له أعداء، ولم يتخاصم مع أحد.
- هذا صحيح، وهذا ما يزيدنا حيرة، حتى إنه كان يتعامل مع خصومه باحترام شديد، عندما نجح في النيابة، أول ما قام به هو

زيارة منافسيه الذين لم ينجحوا، وقال لهم سأكون أنا صوتكم، وصوت الجميع، وهذا بالفعل ما كان.

شيء جيد أن الحاكم اختصر الزيارة معتذرا عن الإزعاج، متمنيا الشفاء للبرجاس، وهكذا تخلصت من مزيد من المواقف المحرجة. في كل الأحوال لم تكن الزيارة سيئة، فعلى أي تقدير عَرَفتُ بنفسي وبشكل مباشر حال البرجاس الذي لا أظن أنه سيعود إلى وعيه، وهذا يعني أنني أستطيع أن أسير في الشوارع بثقة تامة، رافعا رأسي. وثانيا، فقد اطمأننت إلى أننا لن نتعرض لضغوطات بسبب تأخرنا بالبحث عن الجاني. أنا والرائد حابس نعرف الفاعل، ونتظاهر أننا لا نعرف، هو يشتبه بمصعب، لكن البرجاس أصيب بنبّوت أهل حابس، وليس بأي نبّوت آخر. أنا أعرف أن حابس لا علاقة له بمحاولة القتل، لكنه متورط. لقد سألني بشكل مباشر عن أسباب تردد مصعب عليَّ، وقد أخبرته أن واحدا مثله يشكّل خطرًا، ولا بد أن تبقيه تحت بصرك. أعرف أنه لم يطمئن لإجابتي، لذلك دعاه وحقق معه. هذا الموضوع لا يقلقني، فرغم كراهتي للبرجاس، إلا أنني لم أُحرض على قتله، ومصعب ربما لديه دوافعه الخاصة، هو يعتقد أن البرجاس شيوعي، وهو يكره الشيوعيين، وهو يعتقد أن البرجاس يشجع الشباب على التحرر، وهذا مخالف للتقاليد،

وسيقود إلى ابتعادهم عن الدين، وتحلّل المجتمع، وهو يعرف ما فعله الشيوعيون الروس في أفغانستان، وأنهم أرادوا فرض الإلحاد على ذلك الشعب المسلم. هذه آراؤه، وهو حرّ بها، وهو عنيف، لا يقبل الحوار، ولا نفسَ لديه للحوار، سريع الانفعال، سريع الغضب. لست متأكدا إن كان هو من أقدم على ضرب البرجاس بالنبوت، مع أنني لا أستبعد ذلك، لكن لا أعرف كيف يمكن أن يكون حصل على النبّوت لينفذ فعلته، أم أن حابس هو من قام بذاك الفعل؟ وهل من الحكمة أن أُبقي ملف التحقيق بالقضية بيديه؟ لكن ليس لدي من البينات ما يسمح لي بأن أخرج القضية من يديه. لا بأس في أن أراقب بانتظار ما ستؤول إليه الأمور.

الحب الأول

كان كلٌّ شيء كهلًا فيه، إلا عيناه، فقد كانتا بلون القلعة، وتبرقان بمرح من لا يعرف الاستسلام.

إرنست همنغواي

شريفة..

عندما أنظر إلى وجهه الساكن، وعينيه الغافيتين، أشعر كأنني أنظر إلى صورة قديمة في ألبوم الذكريات. أجلس إلى جانبه، أمسح بيدي على جبينه تارة، وعلى رأسه، أناجيه، فهو ما زال البرجاس الذي لم يغادر شبابه، ما زلت أذكر المرة الأولى التي رأيته بها، كان محمولا على الأكتاف، تنطلق من حنجرته هتافات عالية كأنها من بوق إسرافيل، وذارعه ممدودة إلى الأعلى بقبضة كبيرة. ما زلت أذكر قميصه الأبيض المرفوعة أكمامه حتى الكوعين حتى ظهرت عضلات ساعديه الغليظتين المفتولتين. رأيت المظاهرة في الشارع الذي يقع أسفل نافذة منزلنا، عندما التقت عيناه بعيني، أشعرَ حامليه بضرورة التوقف قليلا، وظل يهتف: «ما بنهاب وما بنخاف.. تسقط تسقط الأحلاف، يسقط يسقط الاستعمار..». ساعتئذ أطلقت زغرودة، وتوالت بعدها الزغاريد، وهاجت جموع الشباب بالزغاريد. لا أعرف لماذا أطلقت الزغرودة، كان لا بد من

المشاركة بشيء ما، مع أنني لم أكن أعرف عن أي حلف يهتفون، إلا أن الجزء الآخر من الشعار هو ما أثار حماسي «ما بنهاب وما بنخاف»، شعرت فيها بنداء النخوة، نداء الرجولة.

وقفت المظاهرة أسفل بيتنا، واتجهت الوجوه كلها نحو النوافذ التي تطل منها وجوه النسوة والصبايا الملوّحة بالشمس، فزادت الشباب حماسة، وامتد جسر من النظرات بيني وبينه لدقائق طويلة. كانت عيناي تفيضان بالفرح، ولعل خدَّيَّ احمرَّا كثيرا.

كان أبي يتحدث كثيرا بالسياسة، لكنه لا يشركنا نحن البنات في أحاديثه، ولا يهتم أن يوصل لنا فكرة أو رأيا في ما يحدث، لكني كنت أسترق السمع أحيانا، خاصة عندما كنت أقدّم الشاي والقهوة لضيوفه، كانوا يتحدثون كثيرا عن الاستعمار والتحرر، ويوردون أسماء كثيرة أصبحت جزءا من ذاكرتي: جمال عبد الناصر، تمبلر، خروتشوف، دالاس، نوري السعيد، الملك حسين.. وغيرها، ولا أدري إن كان أبي مع المظاهرة أم لا، لكنني لم أره.

في لحظة ما رأيت سيارة عسكرية تقترب من المظاهرة، وسمعت مكبّر صوت ينادي: أيها المتظاهرون تفرقوا فورا، وإلا سنطلق النار. زاد هياج الشباب، وزادت الهتافات: «ما بنهاب وما بنخاف»، ولم تمض ثوان حتى سُمعَت لعلعة الرصاص، لم أرَ الجموع تهرب، بل هاجت وهجمت على السيارة العسكرية التي ظهر أن معها سيارتين أخريين. هرب الجنود من

السيارات، تناول أحد الشباب صفيحة كاز من أمام أحد المحلات، ورش السيارات وألقى آخرون أعواد الثقاب عليها فتصاعدت ألسنة النار عالية مع الدخان الأسود، ورحت أبحث بعيني عن البرجاس حتى رأيته محمولا على أيدي الشباب وقد غطّت وجهه دماء حمراء كثيرة تشبه دحنون الأرض.

لم أستطع أن أبقى في مكاني، تملكتني الجرأة لأنزل درج البيت بثوانٍ، وأنتقل إلى الشارع السفلي حيث كانت المظاهرة، وما زال الشباب فيها، سألت بلهفة ودون تحديد:

- ماذا جرى.. ماذا جرى؟ من أجل الله.

- لا تخافي، إصابات.

صاح صوت آخر:

- يوجد شهيد.

سقط قلبي، ولم أتمالك نفسي، فشعرت أنني أتهاوى على الأرض، سمعت أصواتا تصيح: «البنت.. البنت»، ولم أعد أعي بعد ذلك ما جرى، حتى وجدت نفسي في بيتنا وقد أفقتُ وفوق رأسي أمي وأخواتي. عندما أفقت سألت مجددا:

- ماذا جرى؟

قالت أمي:

- لا تخافي، لقد فقدت وعيك، وأحضرك الشباب إلى هنا.

- ماذا جرى للمتظاهرين؟
- كلاب الإنجليز أطلقوا النار عليهم، يقال إن هناك شهيدا أو أكثر، وعددا كبيرا من الجرحى.

كان بودي لو أسأل عن ذاك الشاب الذي كان محمولا على الأكتاف، لكني لم أتمكن من ذلك، وبقيت لفترة طويلة لا أعرف من يكون، وليس بإمكاني أن أسأل، مرضت دون أن يعرف أحد السبب، وهزل جسدي، وظهرت هالات سوداء حول عينيَّ.

صرت أكثر وعيا بالقضايا السياسية، تعرّفت على الحلف المقصود، كان ذلك حلف بغداد، إنه حلف استعماري كان يقف خلفه الإنجليز. أرادوا توريط العرب للدفاع عن مصالحهم، وليجعلوا العرب أعداء في ما بينهم. نحن لا نثق بالاستعمار، ورأينا كيف يواجهون المظاهرات التي خرجت ضد الانضمام للحلف.

عرفت أن المظاهرات لم تكن بلا جدوى، تغيرت حكومات حاولت جميعها تثبيت الانضمام للحلف، لكن المظاهرات جعلتهم يعيدون التفكير، ويعلنون أن لا مصلحة لهم بالأحلاف.

لكن الخبر الذي أفرحني، بل وطيّرني من الفرحة أن البرجاس نجا من الموت، وأنه خرج من المستشفى بعد إصابته بجرح في كتفه، وعرفت اسمه الذي لن أنساه. وتوالت الأفراح عندما زارتنا سيدة غير معروفة لي، جلست مع أمي التي استقبلتها بودٍّ كبير، وقدّمت لها ضيافة خاصة؛ إذ

قدّمت لها الشاي المعطر من تلك العلبة المعدنية الجميلة التي أهداها إياها خالي الدكتور بعد عودته من بريطانيا.

بعد أن خرجت المرأة دعتني أمي وبدأت حديثا سلسًا عن المرأة التي تحدثت بفخر عن ابنها الذي قاد المظاهرة ضد الحلف، وكيف أصيب برصاص الجنود، ثم قالت والابتسامة في عينيها:

- أم البرجاس تريدك عروسا لابنها.

لم يكن صعبا عليها التقاط الفرحة في عيوني، ولم يكن لدي مجال للمناورة. قالت إنه ينهي دراسته الجامعية، وإنه ابن عائلة معروفة، وصديق لوالدك، وأنتِ أنهيتِ المدرسة، وستصبحين معلمة..

كل هذا لم يكن يعنيني، بل ما كان يعنيني هو ذاك الشاب ذو الوجه الحنطي بلون حنطة بلادنا، والساعدان المفتولان، وشعره الأسود المتطاير في الهواء، ذاك الذي كان محمولا على الأكتاف يهدر بالهتافات ضد الحلف.

عودة البرجاس

إذا ما نام راع عن قطيع
أقام الذئب في الليل احتفالا
صيام المواجدة، أغنيات مالحة

شريفة..

كان البرجاس في ذلك اليوم شخصًا آخر، كان مضطربًا ومهمومًا للغاية، خلع عباءته ولملم أطرافها وألقاها على كتفه وخرج. لم أعرف وجهته، لكني عرفت في اليوم التالي للحادث أنه كان في منزل الدكتور مشعل، وأن اجتماعًا كبيرًا أقيم هناك حضره جميع رجالات حارسة من كل الأعمار، وأنه تحدث في الاجتماع وكان منفعلا، وقال إن أهل حارسة لن يتركوا أهل الجنوب، وأن الحكومات دمّرت البلد، وأن تدهور العملة سيُفقر كل أفراد الشعب ما عدا أولئك اللصوص الذين نهبوا البلد ومقدّراته، وأعلن أنه لا بد أن يخرج أهل حارسة عن بكرة أبيهم في مظاهرة، وحدّدوا موعدا لها اليوم التالي بعد صلاة الظهر في المسجد الكبير.

أنا أعرفه، في مثل هذه الأمور لا يغمض له طرف، ولا تهدأ له نفس، يتصل بكل من يعرفهم من وجهاء حارسة، ويدعوهم للالتقاء. هذا ما

فعله بالأمس، جلس خلف التلفون، وراح يتصل بأصدقائه واحدًا واحدًا: الدكتور صالح، والدكتور مشعل، والكابتن، وباتع الخشمان، وأكرم بيك، والميكانيكي أبي إلياس، والصيدلي يوسف آرتريان، والمهندس أمجد، والمحامي نجيب، وحضر أبنائي جميعهم، والمخرج فراس، وشباب من طلبة الجامعة، حضر ستون شخصًا وأصدروا بيانا يطالب برحيل الحكومة، وتشكيل حكومة وحدة وطنية، ومحاسبة الفاسدين الذين قادوا البلد إلى حالة التدهور، ورفع الأحكام العرفية، وإعادة الحياة السياسية، وإجراء انتخابات برلمانية.

في تلك الليلة شعرت أن الأمر جدي وخطير، وقد انقبض قلبي، سهرت وأنا أنتظر عودة البرجاس، كان الليل قد تجاوز منتصفه عندما سمعت صرخة «نضال»، فزاد انقباض قلبي. خرجت إلى الشرفة لأستطلع الأمر. رأيت أربعة رجال يحملون البرجاس، وقد رأيت وجهه تحت إنارة الشارع وقد غطاه الدم القاني، لم أتمالك نفسي فسقطت على الأرض. وما حدث بعد ذلك سمعته من الناس بعدما استفقت.

جارتنا نضال الصغيرة قالت إنها سمعت صوت شخصٍ يقول:

قف يا البرجاس، هذا يومك، لكم أفسدت عقول شباب حارسة!

وقال آخر:

هذا يوم الثأر يا البرجاس.

وسمعت صوت عمي البرجاس يقول بصوته الغليظ:

من أنت، وماذا تريد، اكشف اللثام عن وجهك إن كنت رجلا.

سمعت الآخر يقول، ويبدو أن عمي كان يريد أن يقترب منه، ولعله كان يريد أن ينزع اللثام عن وجهه:

لا تقترب، أحذّرك.

وعمي البرجاس يقول:

من تكون أنت حتى تحذرني؟ أنا لا أخاف منك ولا مِمَّن هو أهم منك أيها الجبان، اقترب وأرني وجهك.

في تلك اللحظة سمعت صرخة عمي البرجاس متألّمًا: «آآآآخ»، وسمعت أحدهم يقول: اهرب.. اهرب.

أدركت أن عمّي البرجاس تعرض لضربة ما، خرجت على الفور وقلبي يكاد يقفز أمامي. وجدت عمي ممددًا ورأسه مدمى، صرخت وأنا أقلبه على ظهره، حتى جاء الشباب وحمّلوه.

الطبيب الشرعي يقول إنه تعرّض لضربة بنبّوت صلب على مؤخرة رأسه، أدت إلى كسر في الجمجمة، ونزف في الدماغ.

اجتمع الأولاد في البيت وكانوا يغلون كالمرجل، قال إبراهيم:

فعلوها، حتى لا تخرج المظاهرة غدا. لكنها ستخرج رغمًا عنهم.

أخبرني الأولاد أن الحاكم اتصل بعد ساعتين من الحادث، وعندما عرف عن حال البرجاس، أخبرهم أنه سيطلب طائرة مروحية من العاصمة لنقله. عند الفجر هبطت الطائرة في ميدان حارسة. تجمَّع أهل حارسة الذين لم يناموا الليل وقد التفوا حول الميدان والحزن يوشح وجوههم، والأسى ينفر من عيونهم. حتى الأطفال لم يُفرِحهم رؤية طائرة تهبط

أمامهم لأول مرّة. لم يروا في السابق تلك الطائرة التي هبطت في الميدان ونقلت المعلم الذي هشّم رأسه الطلبة إلى العاصمة.

نُقل البرجاس من سيارة الإسعاف على النقالة إلى الطائرة، وصعد معه من أبنائه الدكتور أسامة فقط، ارتفعت الطائرة في السماء واشرأبت الأعناق نحوها حتى اختفت بعيدًا، وهدأ هديرها. تململ الناس وتحركوا تلقائيا نحو وسط الميدان، وفجأة ارتفع صوت هتاف: «تسقط حكومة الفساد، ما بنذل وما بنموت، تسقط حكومة النبّوت».

تعالت الهتافات حتى امتلأ بها الفضاء، وتحرك الحشد صعودًا، وعندما اقترب من مبنى الشرطة، كان رجال الشرطة أمام المبنى مدجّجين بالسلاح، وأطلقوا بداية رشقات من الرصاص في الهواء، لكن المتظاهرين لم يتراجعوا، فأُطلِقت رشقة من الرصاص نحوهم، ساد هرج، وعلت صرخات؛ شباب يحملون آخرين أصابهم الرصاص، وقد دميت أجسادهم، وآخرين هجموا على سيارات الشرطة وأضرموا فيها النار، من جديد لعلع الرصاص، تفرق المتظاهرون في الحارات، ليتجمعوا مجددًا في مكان آخر.

الرُّبّان أبو أحمد

خرج البحر من القلب
فصار الشاطئ ينبض
عبد الرزاق الربيعي، نهارات بلا تجاعيد

المخرج فراس..

لكل مدينة وجوهها، هم أبناؤها الذين نبتوا في أرضها أو نُحتوا من صخورها، أو رضعوا من مائها. حارسة ظلت مأوى للأحرار والهاربين من الظلم، من يدخلها يحصل على الأمان من دون عهد، ويصبح أحد أبنائها له ما لهم وعليه ما عليهم، فلا يختلف أحدهم عن الآخر. في عملي هذا تناولت مجموعة من الوجوه التي كانت علامات بارزة في حياة المدينة، وجوه عرفتها وخبرتها، وربما انحزتُ لها. انحيازي هذا أبرره بإجماع أهل حارسة عليهم، فهم علامات مميزة في نسيج هذا المجتمع المتين. أما أنا فسأتركهم يتحدثون عن أنفسهم.

الربّان أبو أحمد

دخلت حارسة فجرًا، كانت المرة الأولى لي بها، كان الظلام يُلملم بقاياه من على أسطح المنازل. وتدخل الشمس على استحياء لتملأ

الفراغ. حين وصلت إليها استفاقت حارسة من نومها وابتدأ التجار بعرض بضائعهم على الأرصفة. كانت شوارعها شبه خالية من السيارات. البيوت والحوانيت لها بوابات من الحجر الصلب انتظم فيها مشكّلًا أقواسًا وعقودًا.

كان عامل النظافة الأخرس يكنس الشارع بمكنسة صُنعت من شجيرات «الوسبا»، ورُبطت بعصا طويلة، صارخًا طوال الوقت بكلام غير مفهوم.

فاكهة تكدّست على أبواب بعض الحوانيت مشكلة أهرامات صغيرة: عنب، وتين، وصبر، وفقّوس. أثواب نسائية سوداء تملأ مقدمتها خيوط التطريز الخضراء والحمراء معلقة على أبواب بعض الحوانيت الأخرى.

لفّات كبيرة من الحبال، ومجموعات من الدلاء المصنوعة من مطاط عجلات السيارات القديمة مرصوصة على جزء من الرصيف، وعلب الصفيح المليئة بالدبس والحلاوة، وصناديق خشبية مكعبة مليئة بأوراق الشاي الأسود، وأجولة من الأرز، وأخرى من السكّر، وغربال قريب من اليد فيه أوراق تبغ ناشف مفروكة باليدين، و«غليونات» لها رؤوس صغيرة وقصبات طويلة تصل من الأرض إلى فم الشخص الجالس، وميزان ذو كفتين نحاسيتين يتوسط طاولة خشبية مهترئة يقف خلفها البائع، وأكوام من الصوف، وتلال من الجميد، وصفائح السمن ارتصت متقابلة، ومرطبانات زجاجية امتلأت بالحلوى الملونة، ورفوف خشبية

ارتصت عليها قطع الصابون وأمشاط الشعر، ومرايا صغيرة الحجم سهلة النقل. ورفوف أخرى ارتصت عيها لفّات من الأقمشة الخفيفة الملونة صفراء وحمراء وبيضاء وزرقاء.

رجال وجوههم مثلثة الشكل، قاماتهم مرتفعة يسيرون في الشوارع مرتدين أثوابا بيضاء أو بألوان قاتمة، بعضهم يرتدي فوقها عباءة، ويعتمرون على رؤوسهم حطّات بيضًا أو حمرًا أو سودًا وعُقلًا سودًا.

تلوح من قريب قبة مسجد خضراء ومن خلفها مئذنة عالية تشق عباب السماء، تجاورها أبراج أجراس كنيسة تعلوها الصلبان.

انطلقت أجوب شوارع المدينة التي أراها للمرة الأولى في حياتي. إنها تختلف عن يافا التي عشت فيها، وعن المدن القبرصية الساحلية. هنا أعداد السيارات أقل بكثير، والشوارع متقاربة جوانبها تنطوي على علاقة حميمة لا ضيق فيها. المحلات التجارية لا تعلوها الإعلانات المضاءة ولا «الآرمات» الكبيرة المخططة بيد خطاط. الناس هنا يعرفون بعضهم بعضًا، لذلك كانوا يتبادلون التحيات طوال الوقت.

كانت الدوائر الحكومية في تلك الفترة تقع في بيوت عادية تشبه بيوت الأهالي، إلا مقر الحاكم فكان في سراي عثماني قديم يعلوه العلم ويقف على بابه شرطي، ويقابله مبنى قديم يشبهه، يعلوه العلم نفسه، لكن لا يوجد شرطي أمام البوابة الحديدية، إنه مبنى البلدية.

يجاور السراي مسجدٌ صغير جميل الشكل. أمام المسجد يقف بناء جميل تعلو سقفه طبقة من القرميد البني، وأمامه حديقة جميلة فيها أشجار باسقة في الارتفاع، وزهور ملوّنة انتظمت في أحواض منفصلة، وشجيرات دائمة الخضرة تشكّل سياجا جميلًا للحديقة، تلك كانت المكتبة كما تشير اللوحة فوق بوابتها.

يخفي السراي خلفه وجه السلطة الخشن، سجن الرجال يقابله سجن النساء، ثم دوائر الشرطة والفرسان وإسطبلات الخيل أسفل منها.

كنت أدرك أن لا شكلي، ولا صوتي ذو النبرة الآمرة، يوحيان بأني بائع فلافل، فأنا، من كان يقود السفن بين موانئ المتوسط، ارتضيت أن أقود المركب الكبير في البحر المالح، ثم هأنذا في هذه المدينة الغريبة سأصبح بائع فلافل. هل الأقدار هي ما يصنع حياتنا؟

لكني أنا من صنع قدره بنفسه عندما جرّدت الجنديين الإنجليزيين من سلاحهما وقدمته للثوار. لست نادمًا على ما فعلت.

فكّرت إن كان عليّ أن أخلع الحذاء الرياضي من قدمي، وأستبدل بالبنطلون والجاكيت والطاقيّة ثوبا وعباءة وحطة وعقالا كما يلبس أهل المدينة، لكني قرّرت أن أبقى كما أنا، كي تذكّرني ملابسي، إن نسيت، بأنني ربّان سفينة كبيرة، وربّان مركب كبير يصارع البحر وأمواجه. أريد أن أبقى كما أنا ربّانا حتى لو غيّرت مهنتي. فالعمل الذي تعمله لا يشكّل

شخصيتك إن لم تكن أنت من اختار أن يعمله. أنا لم أختر في يوم من الأيام أن أعمل بائع فلافل.

هاجر أبي من يافا إلى قبرص في العهد العثماني، قبل دخول الإنجليز إلى فلسطين، تزوج من امرأة قبرصيّة من أصل تركي. أنجبت له نصف دستة من الأطفال ذكورًا، وظلّت تحلم أن تُنجب بنتًا تربيها كما تحب. لكن أبناء البحّارة الذكور يربّيهم البحر لا الوالدان، فنحن أبناء البحر، نولد على اليابسة، سرعان ما نجد أنفسنا في البحر نصارع أمواجه ونقلّب الشراع متحايلين على تيارات الهواء التي تقود السفن إلى حيث لا تشتهي أن تذهب. أمي علمتنا اللغة التركية واليونانية، وأبي علّمنا اللغة العربية، والبحر علّمنا لغة الحياة، وأنا خليط من العرب والأتراك والقبارصة.

راقبت الجنديين الإنجليزيين في ميناء يافا، كانا شابين صغيرين أشقرين. جنديان من الجيش الإنجليزي الذي يستعمر فلسطين ويعين الصهاينة على الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها جاءا ليستمتعا بالشمس على شواطئنا. خاطبتهما وأشرت إلى زجاجات الخمر التي أحضرتها من السفينة. لم يفهما ما قلته من كلمات، لكنهما فهما الإشارة، ارتديا ملابسهما فرحين وعلى عجل، واتّبعا إشارتي، ابتعدنا قليلا عن الناس في المرفأ، وبدأنا شرب الخمر حتى ثملا، ولم يعد أي منهما قادرا على مقاومتي. جردتهما من السلاح الذي معهما وتركتهما سكرانين، لففت البندقيتين بكيس من الخيش، وعدت إلى المرفأ.

قدّمت البندقيتين لرجل أعرفه وأثق به يعمل مع الثوار في فلسطين، وشرحت له ما حصل، أخذ السلاح ونصحني بأن أختفي عن عيون الإنجليز، فأترك يافا وموانئ البحر الأبيض المتوسط نهائيا.

تركت يافا والسفينة التي كنت أعمل عليها وذهبت باتجاه الشرق، فوجدت المركب الكبير في البحر المالح ينتظر ربّانا. هي الأقدار التي تسيّر حياتنا، لم أكن أتصور أني سأعمل ربّانًا لهذا المركب في ذلك البحر المالح المغلق. الأقدار قادتني من يافا إلى قبرص ثم إلى يافا مرّة أخرى ثم إلى هذا البحر المالح شديد الملوحة.

سألت الربان قبل أن يستطرد في سرد حكايته:

- لماذا لم تقتلهما، يا ربان؟
- لقد كنا على الشاطئ، أما لو كنا في البحر لكنت ألقيت بجثتيهما في الماء طعاما للأسماك.

تسلّقت الجبال في طريقي إلى حارسة، وكنت مضطرا إلى إخفاء هويتي، وإخفاء مهنتي. قرّرت أن أفتح مطعما للفول والحمص والفلافل، فقد عملت في طفولتي في مطعم أبي القاسم الفوال، ورأيته كيف يصنع الحمص والفول والفلافل، إذ لا توجد لدي مهنة أخرى غير قيادة السفن والمراكب، كما أن المدينة تخلو من مطعم من هذا النوع.

لعل للصدفة دورا في ما حصل، فحارسةُ أول مدينة تقابلني بعد أن غادرت المركب وتركته في البحر وحيدا يقارع الملح والأمواج. إنه بحر

ذو أمواج شديدة الملوحة، فقير للحياة حتى لو كانت طحلبًا أو سمكة صغيرة من تلك الأسماك الملونة، أو حتى شُعبًا مرجانية. بحر تطفو فيه الجثث ولا تغرق، وها هو مركبي تطفو جثته على شاطئه.

لست نادمًا على الإقامة هنا، لعلها المدينة المناسبة لشخص مثلي ليقيم فيها. هنا، في حارسة تشعر أنك امتداد لمقاومة تغوص في قلب الزمان، لعل الناس في حارسة يشعرون بأنهم أكبر من أي سلطة مهما امتلكت من القوة.

هنا في حارسة يعيش الغني والفقير في مستوى واحد من الرفاه، يأكلون الطعام نفسه، يلبسون الملابس نفسها، يذهب أولادهم إلى المدرسة نفسها. من يملك نقودا كثيرة وأرضًا واسعة، أو له تجارة رائجة، ومن ليس معه نقود إلا القليل، وليس له أرض واسعة أو تجارة تُدرّ عليه أرباحا طائلة، يشعرون أنهم سواسية لا اختلاف بينهم، يجمعهم احترام متبادل. الفقر هنا لا يُعدّ عيبًا، ولا يشعر الفقير بغضاضة أمام الغني، أتدري لماذا؟ لأنهم يعيشون في المستوى نفسه من الرفاه، أو قل المستوى نفسه من التقشف. كل سلعة موجودة في السوق يستطيع الغني شراءها كما الفقير.

الصدفة المحضة قادتني إليها لأنها مدينة تحمي من يطلب الحماية ولا تخذله أبدا.

منذ أن تركت المركب على شاطئ البحر وأنا أعيش هنا في هذه المدينة، لم يسألني أحد قط من أنت، أو من أين أتيت، أو ما هو دينك؟

الكل هنا تعامل معي بوصفي ضيفًا، ما زال الناس يتعاملون معي كأنني ضيف يجب احترامه وتقديم كل الخدمات له لتسهيل حياته بينهم. تزوّجت فتاة من حارسة، وأنجبت أطفالا ذهبوا إلى المدارس، لم يأتني في يوم ما أحدهم منكسرا لأنه غريب، وسرعان ما جرت في أجسادهم روح الإباء التي تبثها حارسة في أبنائها، واكتسبوا صفة أهلها بأنهم عصيّون على التطويع والتدجين. ابني الكبير قاسم، وقد أسميته باسم ابن بائع الفلافل الذي تعلَّمتُ عنده، هو من يدير المحل حاليا، لكن الناس هنا ينادونني «أبا أحمد» لا أدري لماذا. وابني الآخر ثائر التحق بالمقاومة في لبنان، والثالث ذهب ليدرس الطب في روسيا، والبنت تعمل مدرّسة.

قضيت ليلتي الأولى في المدينة عند شخص كنت أعرفه منذ أيام العمل على المركب في البحر. استأجرت غرفة خلفها حوش صغير، جعلتها مسكنا لي ومحلا لبيع الحُمّص والفول والفلافل.

‘‘‘

سألتُ الربان أبا أحمد للتأكد إن كان أصبح وجهًا من وجوه حارسة:

هل شاركت في مظاهرات أبناء حارسة ضد الحلف، أو ضد العدوان، وتصفية القضية؟

قال بكل ثقة:

في حارسة لا يوجد أحد على الحياد، عندما تخرج مظاهرة، كنا نغلق محلاتنا ونسير فيها.

وما هي علاقتك بمقام الولي العجمي؟

مثلي مثل جميع أبناء حارسة، أضع فيه أحيانًا طعامًا وماءً لعابري السبيل.

هذا أحد وجوه حارسة الذين لا يمكن تجاهلهم، وهو الوجه الذي رسمته حارسة في إحدى لوحاتها، وجعلت خلفيته شراعا وبحرا. الذي ترك بصمة في لوحة حارسة الكبيرة، فمحله المشهور بالربان أبي أحمد، أصبح معلما من معالم المدينة.

الصيدلي يوسف

وعد سنبقى أحياءَ بغض النظر عمّا سيحدث.

فيلم تيتانيك

المخرج فراس..

كنت أحب مشاكسة يوسف الذي لم تغب عنه لكنته الأرمنية رغم تعلّمه العربية، وقدرته على أن يفتي في إعرابها. عندما أدخل صيدليته ذات البوابة الحجرية المنخفضة، أحيّيه، وأقول له:

- أنت لست حارسيًّا، يا يوسف، أنت لا تجيد لهجة أبناء حارسة.

فيرد محتدًّا:

- أنا حارسي قبلك وقبل أبيك. أنت ماذا تعرف عن حارسة، وأهلها.

أهدِّئه قليلًا:

- أنا أمزح معك، يا رجل.

يدعوني إلى الداخل، ويحضِر القهوة التي يُعدّها بنفسه في المطبخ الصغير داخل الصيدلية. أخبره عن مشروعي بإنتاج فيلم عن أبناء حارسة، وأطلب منه أن يسرد عليّ حكايته، وحكاية عائلته، يفرح كثيرًا لأن شخصًا اهتمّ بالاستماع لحكايته التي طالما رواها والده، يقول: «كان ذلك مساء

أحد الأيام من عام 1916، إذ جاء مختار قرية صغيرة في ضواحي أورفا وأخذ الرجال إلى الهضاب المحيطة بها، وطلب من النساء والأطفال والصبية أن يكونوا حذرين، فربما يأتي عسكر العصملي إلى القرية للبحث عن الرجال وتفتيش البيوت».

حين غابت الشمس وتوقف إطلاق النار المتبادل في التلال القريبة من القرية، وساد المكان سكون الموت، دخل العسكر إلى منزل أهلي الذي كان فيه أبي وجدتي وجدتي لأمي التي هي خالة أبي، وأمي ماري.

قفزت أمي إلى الخابية الطينية المبنيّة في الجدار، لحق بها أبي من دون تردد، غطّت جدتي الخابية ببساط قديم، بينما بقي أبي وأمي ساكنين وصامتين. عبث العسكر بكل محتويات المنزل، وكان أبي وأمي يسمعان توسُّل جدّتيَّ إلى الضابط كي لا يلحق بهنّ الأذى. كان الضابط يسألهن عن الرجال، ومن منهم كان يحمل سلاحًا، ويقولون إن هذا تمرد ضد الدولة. فتّشوا كلّ شيء في البيت، نثروا الملابس، وقلَبوا الأسرَّة، وجدّتاي تصرخان طوال الوقت.

مضت ساعتان من الزمن وهما في الخابية، ثم انقطعت الأصوات وساد المكان صمت كصمت القبور. يقول والدي إنهما لم يعودا يسمعان دبيب الأقدام في المنزل، أو صوت الرصاص في الخارج. فقرّرا الخروج من الخابية الطينية المبنية في الجدار، تسلّق والدي أولًا، ثم أمي، جال بنظره في المنزل والساحة الخارجية. كانت الأبواب مشرعة، ولا أحد في

المنزل. خرج وتبعته أمي، أسرعا للبحث في المنزل عن جدّتيَّ، لكنهما لم يجد أحدًا. خرجا من المنزل، ولم يريا أحدًا في الطرقات. ذهبا مسرعين إلى منزل المختار، أيضا لم يكن أحد هناك، ولم يكن في القرية في تلك الساعة أحد غيرهما، اختفى كل شيء حتى الدواب والدجاج والطحين والحبوب. لم يترك العسكر شيئا يؤكل.

قرّرا ترك القرية وترك أورفا والذهاب إلى خالهما في حلب، فقد سبق وأن رافقا جدتي في زيارة له قبل سنتين. سارا باتجاه الجنوب، ولم يكن معهما سوى الثياب التي يرتديانها، وقليل من النقود الفضّية التي كان أبي يخفيها طوال الوقت في جيبه. قطعا قرى أرمنية وأخرى كردية، ثم بدآ يسمعان لغة جديدة، ليست تركية وليست كردية. كانا يسمعانها لأول مرّة، وكلّما تقدما في المسير زاد عدد الناس الذين يتكلمون اللغة الجديدة التي لا يعرفانها، إلى أن وصلا إلى حلب.

بعد أن استراحا ليلة عند الخال، أعطاهما بعض النقود وخبزًا وملابس بدوية للتنكر بها، وطلب منهما مواصلة الهرب إلى الجنوب بعيدا عن الجنود.

سارا متجهين إلى الجنوب، بمحاذاة خط سكة الحديد الممتدة من حلب باتجاه الجنوب. كانا يركبان القطار حينًا، ويغادرانه عندما يقترب من محطة رئيسية يوجد فيها الجنود الأتراك العثمانيّون. مشيا مسافات أكثر من تلك التي ركبا فيها القطار. كانت الطريق موحشة، ومليئة

بالحيوانات المفترسة في الليل، لكن النهار كان موحشًا أكثر؛ لأن محطات القطار كانت تعجّ بالعسكر المنسحبين من جبهات القتال في جزيرة العرب والشام. المسيرة كانت في اتجاه معاكس، الجنود ينسحبون نحو الشمال، وهما يهربان متخفّيين نحو الجنوب.

أصبح أبي زوجًا وحارسًا لأمي، عليه حمايتها وتأمين انتقالها إلى مكان بعيد آمن. كان أحدهما ينام نصف الليل، والآخر ينام النصف الثاني منه. أمضيا وقتا طويلًا في الطريق، أيامًا مخيفة، ولياليَ سوداء، ولم يكن معهما إلا القليل من الطعام والماء. يركبان القطار قليلا، ويسيران على الأقدام كثيرا، ويختفيان كلما حلّ الظلام.

دخلا هذه المدينة ليلا، توجها فورا إلى مقام الولي العجمي، كان يوجد فيه بعض الغرباء. بقيت أمي متخفية بزي الرجل، تذهب مع أبي إلى السوق ولا تفارقه. كان عليهما تعلم بعض الكلمات العربية وتأمين مكان للسكن وتأمين عمل لأبي.

البعض يرسمون قدرهم بإرادتهم، أمّا أمي وأبي فقد رسم القدر لهما حياتهما. جاء إلى المدينة شخصان أرمنيان من ميناء حيفا بشاحنة كبيرة ومعهما مطحنة للحبوب، بقيا ثلاثة أيام وهما يركبانها، ويصنعان المصاطب والأحواض الإسمنتية الناعمة حولها، وكان الفتية يأتون لمشاهدة ما يعملون، وكان أبي يذهب مع أمي بلباس التخفي. عندما عرفا أن القادمَين أرمنيان، خاطباهما بلغتهما، فطلبا منه أن يعمل معهما. بقي

أسبوعا معهما يدرّبانه كيف يشغّل المطحنة، وكيف يزودها بالديزل، وكيف يعمل لها الصيانة، وأخبراه أنهما سيزورانه أسبوعيًّا، لكنهما بعد شهرين توقفا عن زيارته، وأصبح يدير المطحنة وحده.

أنجبت أمي ابنتها الأولى، ثم ولدتني أنا، وأطلقت عليّ اسمًا عربيًّا هو «يوسف» ليسهل على الناس تداوله، ثم أنجبت ولدها الأخير جريس.

أبي كان يحلم أن أصبح صيدلانيًّا مثل خالي في حلب الذي أنقذهم في تلك السنة وهم أطفال.

حصلت على شهادة المترك التي أهلتني لدخول الجامعة، ثم الالتحاق بالجامعة الأمريكية في بيروت لدراسة الصيدلة. كان أبي يرسل لي بضعة دنانير في الشهر رسوم التعليم والسكن الداخلي. كنت أعود إلى حارسة مرتين في العام، مرّة في الشتاء إجازة منتصف العام، وأخرى في الصيف إجازة نهاية العام. كان القطار ينطلق بنا في رحلة شاقة تأخذ وقتًا طويلًا، ثم نهبط في محطة صحراوية تبعد عن حارسة حوالي، أربعين كيلومترا فنمشي سيرًا على الأقدام، نغوص في الوحل شتاء ويغمرنا غبار الطريق صيفا. لا يوجد وسيلة نقل إلا الدواب في ذلك الوقت، أبي لم يكن يملك دابة تحملني من المحطة إلى البيت، فكان لا بد من السير على الأقدام، وقطع تلك المسافة الطويلة. لم أكن وحدي في تلك المسيرات من المحطة إلى المدينة، وإلى القرى المحيطة بها، كان آخرون

يشاركونني السير على الأقدام أيضا، يقذفهم القطار في المحطة وعليهم السير مشيًا على الأقدام إلى بيوتهم.

أحببت اللغة العربية، وأتقنت القواعد والنحو، إنها لغة عظيمة غنيّة، وانطبعت في دماغي أوزان بحور الشعر العربية، فأحببت الشعر العربي إجمالا، وبالأخص ما قاله الشاعر الصوفي ابن الفارض. أستمع إلى تلاوة القرآن من كبار المقرئين. تعجبني الموسيقى، وأكاد ألمس الميزان الشعريّ في بعض الأحيان. أَعجبُ كثيرا من العرب، لماذا يتحدثون بلهجات متعددة وعندهم لغة جميلة ربما لا تضاهيها لغة أخرى؟!

كما أحببت اللغة الإنجليزية، وقرأت بها ما كتبه الفلاسفة العالميون من مؤلفات عظيمة. الفلسفة دفعتني للموسيقى الكلاسيكية دفعًا قويًّا، فعرفت المشاهير من كبار المؤلفين الموسيقيين وقرأت عنهم واستمتعت بالاستماع إلى مؤلفاتهم.

الفلاسفة والموسيقيون والشعراء أشخاص ملهمون موهوبون من الله. لا يهمّهم من أي شعب هم، ولا من أي دين. لهم رسائل ينقلونها إلى البشرية كافة. ما أهمية أن نعرف ديانة أي منهم؟ لا شيء. ما يجب أن نعرفه عنهم هو فقط ما أبدعوه وقدّموه للبشرية. انظر إلى الأقدار كيف سارت بأبي وأمي من جبال أورفا إلى جبال حارسة العظيمة التي ولدت فيها وإليها أنتمي. حارسة التي وحّدتني مع العم مسلّم، ومع الشيخ

البرجاس وباتع الخشمان وعبد الرزاق السقا والربان أبي أحمد، حارسة جمعتنا مرة أخرى أبناء صالحين مخلصين لها.

‘‘‘

هذا هو يوسف آرتريان، وجه آخر من وجوه حارسة، مَعْلَمٌ من معالمها، صاحب أول صيدلية، وأبوه أول طحّان فيها، أكل أبناء حارسة جميعهم من الخبز المخبوز من طحين مطحنته. مفتي اللغة العربية، والأدب العربي الذي لا يضارعه أحد في حارسة.

ثورة شريفة

إنك موقدٌ متنقّلٌ أينما تذهب أيها
القلب، لذا لن تجد راحة البال.
ماتسو باشو

شريفة..

اتصل كريم من العاصمة، وأخبرنا أن البرجاس في غرفة العناية الحثيثة، حالته مستقرة، لكنه ما زال في غيبوبة، إذ حدث لديه نزيف في الدماغ ونقص في الأكسجين على الدماغ، ربما هذا أتلف أجزاءَ من الدماغ. لم أتحمَّل ما سمعت، ارتديت عباءتي، ولففت الشال على رأسي وخرجت غاضبة أمام حيرة كل من كان في البيت، عندما خرجت من باب البيت وصفقته خلفي بعنف محدثة ضجيجًا عاليًا، هُرع من كان في البيت خلفي وهم ينادون عليّ: أمي، أم ناصر، إلى أين أنت ذاهبة؟

لم أعرهم اهتماما، وكنت أخطو خطوات واسعة، متجهة نحو مبنى السراي، وقد أحسست بخطوات ناس كثيرين خلفي. وصلت إلى مبنى السراي، حاول شرطي اعتراضي، لكني أزحته بيدي بقوة، واندفعت إلى الداخل، وقد اندفع الحشد خلفي. أمام مكتب الحاكم المغلق، كان مدير مكتبه يحاول إيقافي فرفعت صوتي عليه:

- ابتعد عن طريقي، أين هو الباشا خاصتكم؟ هل يعلم من استهدف؟

فجأة رأيت الباب ينفتح، ويخرج منه الحاكم شخصيًّا مرتبكًا، محاولًا تهدئتي:

- أهلا أم ناصر، تفضلي.. تفضلي.

دخلت وخلفي الحشد، قلت وقد استدرت نحوه:

- أنا أعرف أنكم أردتم إسكات أهل حارسة من خلال تحييد البرجاس، وأنتم لا تعلمون من هو البرجاس، ومن وراءه. وراءه أسود ستمزقكم إربا.

راح يهدئني، ويحلف أغلظ الأيمان أنه لا علاقة له بما حدث، ولا لأجهزة السلطة، قال:

- ولو، يا أم ناصر، ومن لا يعرف أبا ناصر ومكانته؟ صدقيني، إنني غضبت لما حدث، وجمعت قادة الأجهزة الأمنية لدينا في حارسة، وتأكدت أن أجهزتنا لم تقم بهذا العمل المشين، وأؤكد لك ولأهل حارسة الكرام، أن هذا الأسلوب ليس من أساليبنا، بصرف النظر عمّا جرى بالأمس. أنا شخصيًّا، عندما سمعت بالحادث، وبحال أبي ناصر، طلبت له طائرة مروحية خصّيصًا حتى تنقله إلى العاصمة.

عندها تدخل ناصر بدبلوماسية، دون أن يجلس، وخاطب الحاكم:

- نريد أن نصدِّق، يا باشا، والله نريد أن نصدق، لكن الشرطة لم تُلقِ القبض على أي أحد.
- صدقني يا ناصر بيك أن الشرطة لم تتوقف عن البحث، رغم دقة الأوضاع في البلد، وأعرف أن من يتولى التحقيق أحد أفضل الضباط لدينا، لكن المشكلة أنكم لا تشتبهون بأحد، وتقولون إنه ليس لديه أعداء، أو خصومات مع أحد.
- على أي حال، هذه هي مسؤولية الشرطة.
- أنا قلق وغاضب أكثر منكم، يبدو أن هناك طرفًا ثالثًا يريد أن يؤجج الوضع في البلد.
- لذلك عليكم سرعة البحث عن الجاني، ونحن لسنا مسؤولين عمّا سيجري غدًا.

لقد أشفقت على حال الحاكم الذي بدا لي صادقًا، هكذا شعرت وأنا أنظر في وجهه، لم تخطر ببالي فكرة الطرف الثالث، ومن يكون الطرف الثالث؟

خرجنا من مكتب الحاكم، شعرت أنني نفّست بعضًا من غضبي، وصار عليّ أن أفكر بالبرجاس، قرّرت أن ألحق به، وأبقى إلى جانبه في المستشفى.

في اليوم التالي أخذني ناصر بسيارته، عندما وصلنا أخبرنا إبراهيم أنهم اعتقلوا عشرين شخصًا مِمّن حضروا الاجتماع في منزل الدكتور مشعل.

دارت الدوائر في رأسي، ألهذه الدرجة كان الحاكم يجيد التمثيل، وتمكّن من خداعي بأنه لا علاقة له بما حصل للبرجاس؟

قال إبراهيم:

- جميع من اعتقلوهم من الشيوعيين والقوميين.

قال ناصر مستدركًا:

- لكنهم لم يعتقلوك!
- نعم لم يعتقلوني، ولم يعتقلوا أخي أسامة، ربما شفع أبي لنا.
- ترى، ماذا تريد السلطة؟ الاعتقالات لن توقف الناس عن الاحتجاج، هذا غباء حقيقي، لا بد أن يعود الملك، لن يحل الأزمة إلا الملك.
- الاعتقالات ليست في حارسة وحسب، بلغ عدد المعتقلين من المناطق كافة أكثر من ستمئة شخص.

تمتم ناصر غاضبًا:

- عليهم اللعنة! قادرون أن يعتقلوا ستمئة شخص في يوم واحد، لكنهم لم يتمكنوا من القبض على مجرم؟ وضرب قبضته بكفه.

النبّوت

الكراهيــة الشرســة تضـعك في مسـتوىً
أحطٍّ كثيراً من الذين تكرههم.
فرانسوا دو لاروشفوكو

حابس..

بعـد ظهـر الجمعـة تختفـي الحركـة في شـوارع المدينـة، خاصـة عنـدما يكون الجو حارًّا كما كان في تلك الجمعة، وكنت عائدا مـن منـاوبتي، ولا أعـرف مـا الـذي دفـع ذلـك الولـد للخـروج إلـى الشـارع حـاملا النبّـوت مستعرضًا به. عندما رأيت النبّوت لم يخب ظني، فقد عرفت فيه نبّوت أبي. ناديت على الولد الذي اقترب مني غير آبه رغـم لباسـي العسـكري، وقـف أمـامي وقـد وضـع النبّـوت علـى كتفـه، وقـف أمـامي رافعًـا رأسـه، وسألني:

- ماذا تريد؟
- من أين لك هذا النبّوت؟
- وجدته في حديقة بيتنا تحت الأشجار.
- هل تبيعه؟ أعطيك دينارًا، يمكنك أن تشتري به كثيرًا من البوظة.

أنزل النبّوت، وراح يتأمله، وقد قلب شفته السفلى، ثم قال:

- دينار؟ هذا قليل على نبّوت حقيقي.

- ديناران.

أخذته، نظرت إليه، رأيت بقايا الدم الجاف. تأكد لي أن لأخي وردًا علاقة بجريمة الاعتداء على البرجاس، تملكني الغضب والخوف في الوقت نفسه. عدت إلى المنزل، واندفعت مباشرة إلى غرفته، دفعت الباب بشدة، واندفعت نحوه هائجا من الغضب كالثور، رفعته بيدي عن السرير، فشحب وجهه تمامًا، صحت بوجهه:

- لماذا اعتديت على الشيخ البرجاس، وبنبّوت أبي؟

رد متلعثمًا وهو يغطي وجهه بيديه:

- أقسم لك أنني لم أفعل.

صفعته بقوة بيدي اليمين.

- هل تعلم أن الرجل بين الحياة والموت، وإن مات الرجل فلن تسلم، وربما تجلب الخراب لأهلك أجمعين.

رفع رأسه هذه المرة، وقال متحدّيًا:

- لكن بيوتهم لم تخرب عندما قُتل أخي، وبقي البرجاس في حارسة، وبقي وجوده يستفزّنا جميعًا.

- لكن البرجاس لم يقتل أخاك.

- لا فرق، أليس هو ابن عم القاتل.
- هل أفهم من كلامك أنك أقدمت على فعلتك ثأرا لأخيك الذي مرَّت على وفاته سنوات؟
- أقسمت لك أنني لم أرد قتله.

تشبثت بياقة قميصه شادًّا على عنقه، ورفعته حتى أصبح تحت عيني مباشرة:

- وهل الضرب بالنبّوت على الرأس مداعبة؟

عندما أحسَّ بالاختناق، وبحجم الغضب لدي، اعترف أنه سرق النبّوت وأعطاه لمصعب، الذي بدوره نفّذ العملية وأخفى النبّوت. قلت وقد ازداد حنقي:

- وما مصلحة مصعب بذلك؟
- هو أيضا كان يريد أن يصفي حسابًا بينه وبين البرجاس، فهو يعتقد أن البرجاس يقود جماعة الشيوعيين الملحدين، وأنه معادٍ لأهل الدعوة.

دفعته على سريره، وجلست على الكرسي وقد حملت رأسي الذي لم أعد أحتمل ثقله بكفي، ورحت أفكر بالخروج من هذه المشكلة الكارثة.

أرسلت أحد الأفراد فأحضر لي مصعبًا إلى المكتب. لاقيته بصفعة قوية اصفرّ وجهه بعدها، وعُقد لسانه. من الواضح أنه أدرك أنني توصلت إلى معرفة من اعتدى على البرجاس. وفاجأته بالسؤال:

- لماذا اعتديت على البرجاس؟
- أنا؟
- ومن غيرك؟ لقد أخبرني النبّوت بذلك.

استجمع قوته ليجيب:

- إنه شيوعي، كافر، يخرِّب عقول الشباب.

صرخت في وجهه:

- ها أنت للمرة الثانية، تارة تضع نفسك مكان الدولة، وتارة تضع نفسك مكان الله. من تراك تكون؟

قال وقد استفاق من صدمة اللّطمة مهددًا:

- أنت تعلم أنه أصيب بنبّوت أبيك، وأخوك ورد كان شريكي.

أدركت لحظتها أنه أخطر ممّا توقعت، وأدركت حجم الورطة التي أنا فيها. قلت:

- على كل حال ستبقى موقوفًا لدينا حتى تنجلي الأمور.

ولم أكن أعرف كيف ومتى تنجلي الأمور.

بوح

الـذاكرة مـذاق يُسـتعاد، ورائحـة تتجدد، إنها صوت يخفت ثـم يعلـو، وصورة لا تفارق العين قـط؛ تغـور في تلابيب الدماغ، لكنها لا تغيب.

حارسة..

مرّت ثلاثة أشهر على بقاء والدي في المستشفى، أُجريت له عدة عمليات لإزالة التجلطات التي أحدثتها الضربة في رأسه. كل ما استطاع الأطباء فعله هو إبقاؤه على قيد الحياة، لكنه يعيش حياةً نباتية، يتغذى بالأنبوب، ولا شيء يتحرك فيه سوى عينيه، في حين أن نظراته لا توحي بشيء، وهو لا يتفاعل مع أي شيء. أخي الدكتور أسامة قرّر إعادته للبيت، وأن نقوم نحن بخدمته، وهذا ما أسهل على أمي وعلينا جميعًا، فالمستشفى لم يعد لديها ما تقدمه له. اشترينا له سريرًا طبيًّا، وموادّ مقشعة للبلغم الذي يتراكم في صدره بسبب عدم الحركة، وجهازًا لشفط البلغم. كنّا جميعًا حريصين على العناية به: ننظفه يوميًّا، ونقلبه حتى لا يتقرح جسده، وأمي كانت حريصة على حلاقة ذقنه، وتطييبه، وتبخير الغرفة بأفضل أنواع العود، كانت تصر على أن تحافظ على هيبته.

الشرطة لم تتوصل إلى أي شيء بخصوص الجناة، ينتظرون أن يظهر لهم دليل مستندين إلى مبدأ أن المجرم لا بد أن يترك أثرًا وراءه يفيد التحقيق ويخص الجريمة التي ارتكبها، لكن لا أثر للجريمة، فالمجرمون لم يدخلوا معه في شجار، والنبّوت الذي استُخدم في الاعتداء لم يُعثَر عليه في مسرح الجريمة، ولعلهم أخفوه تماما، أو ربما أحرقوه، ويبدو أن المجرمين ما زالوا متفقين ولم تظهر بينهم خلافات حتى يكشف أحدهم الآخر.

إخواني لم يتخلوا عن حق أبي وحق العائلة بأكملها وحق أصدقاء أبي ومحبيه، لكنهم يضبطون أنفسهم، ويعطون الدولة الفرصة حتى تتمكن من كشف المجرمين. الأحداث التي عصفت بالبلد لم تُنسهم أباهم، ولم تُنس أصدقاء أبي السؤال عن صحته وأحواله وزيارته، بل إنهم شكّلوا لجنة باسم لجنة أصدقاء البرجاس لكشف الحقيقة. أغلب أعضاء اللجنة يُرجّحون أن الدولة هي وراء محاولة الاغتيال؛ بسبب دور أبي في التحريض ضد الحكومة، فقط اختلفوا حول نوايا الحكومة هل كانت القتل أم مجرد التأديب، لكنهم يجتمعون باستمرار، ويطالبون الحكومة بكشف الجناة ومحاسبتهم.

الوضع بالمجمل في البلد ما زال متوترا، فالحكومة أقدمت على اعتقال العشرات من النشطاء السياسيين بعد أحداث الجنوب، خاصة من اليساريين، واختفت أعداد كبيرة منهم عن أعين الدولة. رغم أن أخي

الدكتور أسامة وأخي إبراهيم منهم إلا أنهما لم يعتقلا، ربما بسبب وضع أبي، ولأن الدولة لا تريد أن تؤجج العائلة بأكملها ضدها.

فكرة إعادة أبي إلى البيت كانت فكرة حكيمة. رغم وضع والدي الصعب، وأثر ذلك على نفسيتنا، إلا أننا اعتدنا مع مرور الوقت على الحالة، وعدنا تلقائيا نتعامل معه كما لو أنه شفي تماما، فعندما نجلس حوله ونتحاور نوجه له الكلام بشكل تلقائي، ونشركه به، فكثيرا ما نوجه له السؤال للتأكيد على رأي نطرحه: «أليس كذلك يا أبي؟»، أو «أبي لا يتفق مع هذا»، أو «أبي لا يقتنع بهذا»، أو «أبي لا يحب هذا». وإن اختلفوا في ما بينهم، لا يتوانى أحدهم أن يوجه اللوم للآخر لـ«احترم أبي»، وهكذا استعدنا أبي في حياتنا، من دون أحزان أو تأسٍّ. صرنا نلتزم ببيت العائلة أكثر، لا يتأخر أحدنا، ولا تمر ساعة إلا ويكون واحد منا أو أكثر موجودًا إلى جانب أمي يعينها على العناية بأبي، بما في ذلك زوجي، وزوجات إخوتي وأبناؤهم. وكنت بحس الفنان أحاول أن ألتقط تعبيرات من عيني والدي أو وجهه، وقد التقطتها، ربما على الأقل أن وجهه يبدو طيلة الوقت هادئًا، وعينيه تحدقان بالأعلى، ربما حاول مرّة أن يحرك أصابع يده اليمنى. كلّ حركة ولو كانت صغيرة، كانت تمنحنا الأمل بعودة الحياة له.

أمي لا تنفك تجلس إلى جانب سريره، تتلو أدعية طويلة وتمسح بيدها المعروقة على وجهه، وكان كلّما مسحت على وجهه يُغمض عينيه، كأنه يسرح في حال السجن الذي آل إليه، إنه سجين رغم وجوده بيننا، فهو

لا يستطيع التواصل معنا، تماما كما لو كان حبيس زنزانة، وممنوعة عنه الزيارات. يا إلهي! ربما لو لم يتم الاعتداء عليه لكان الآن في السجن مع رفاقه الآخرين، وقد قدّر الله أن يشاركهم السجن بطريقته الخاصة.

كان أبي يخصّني بعلاقة مميزة، فقد كان يحب مجالستي، والحديث معي، ربما كان بحاجة إلى شخص قريب ليحدثه عمّا يجول في خاطره. الشخصيات القويّة تُظلَم كثيرًا في الحياة، فلا أحد يفطن إلى أنهم يمرون بلحظات ضعف إنسانية، يرغبون حينها في أن يبثّوا شكواهم لأحد قريب، لكن من حولهم ينظرون إليهم على أنهم الأقوياء، وأنهم لا يواجهون المشاكل، أو أنهم أقوى من المشاكل، وأكبر من الهموم.

في القصة التي ما زال أبناء حارسة يتناقلونها عن تصدي أبي للمُخبر أبي الشامة، لا أحد يعرف أن أبي بقي تلك الليلة قلقًا، وخائفًا، منتظرًا أن تأتي سيارة الحكومة ورجالها ليعتقلوه، ويرموه في السجن، ويعرّضوه للضرب والإهانة، ولا أحد يعرف كم تعرض للانتقادات والتجريح لأنه أرسلني إلى إيطاليا لتعلم الرسم. وأنا الوحيدة التي باح لها بمشاعر الحب الأول، قال إنه عندما سمع زغرودة والدتي وهي تطل من شرفة المنزل أثناء تظاهراتهم ضد الحلف، نظر ناحية الصوت، فرأى شمسًا، ولم يرَ وجه فتاة، وقد أوقدت فيه الحماس. وظل بعد ذلك اليوم يشرد كثيرًا وهو يفكر بها، وكيف يمكنه رؤيتها مرة ثانية، أو الوصول إليها، وقد كتب أشعارًا ربط فيها الحب بالوطن والحرية، ولم يُطلع عليه أحدًا.

لأبي دفتر مذكرات، يكتب فيه كل شيء بخط جميل، تارة يكتب بعضًا من سيرة حياته، وتارة يكتب تعليقات على حدثٍ ما، وتحليلات سياسية، وأحيانا يعلِّق على فكرة هنا يعبِّر فيها عن رايه، أو يورد خبرا ويعلق عليه، ويلخّص كتبًا قرأها، وله محاولات شعرية. ولعله فكر في كتابة رواية، إذ وجدت مخطط رواية ذكر فيه الشخصيات الرئيسية، والحدث الرئيسي، حتى إنه حدد الأفكار الرئيسية.

كما كتب قصص الأشخاص الذين يلجؤون إليه ليرافع عنهم، والقضايا التي يرافع فيها، خاصة قصص السياسيين والمظلومين وقضايا الفساد. وكتب عن تجربته الانتخابية عندما ترشح لمجلس النواب، وعن الفترة أثناء عمله في المجلس، وعلاقاته بالسياسيين من أعضاء الحكومة والبرلمان والحزبيين. ولطالما أوصاني أن أكتب أنا أيضًا مذكراتي؛ فالإنسان برأيه مُعرَّض للنسيان مع الوقت، ولا بد أن نترك تجربتنا للأجيال من بعدنا، أو على الأقل لأبنائنا.

أبي هو الذي أخبرني عن يوم مولدي الذي تصادف مع هبوط الطائرة المروحية في ميدان حارسة لنقل المعلم المصاب. وجدت في مذكرات أبي أنه عندما سمع خبر ضرب المعلم واعتقال الطلبة الذين اعتدوا عليه، تركنا أنا وأمي في المستشفى، وذهب لمقابلة الطلبة الذين ضربوا المعلم ليفهم منهم الحكاية بلا رتوش. لقد أزعجه الأمر كثيرًا وراح يفكّر في من يقف وراء هذا الحادث المستنكر.

أيدٍ وهراوات

إدانة الآخر ليست صحيحة، فلا أحد يعرف أبدا
ما الذي يحدث في روح الشخص المدان.
ليو تولستوي

حارسة..

ليس من السهل فهم واستيعاب أحداث الماضي، ولكل حدث سياقاته. قرأت في مذكرات أبي سردًا لحادثة غريبة: شباب قوميون يعتدون على معلم مدرسة، ويضربونه بعنف، ويهشمون جمجمته، ويكسرون أضلاعه. والمفارقة أن المعلم ينتمي للتيار الفكري نفسه، لكن ربما ليس للحزب نفسه، يبدو أن هذا ما يقود له التعصب. كتب والدي يقول: «معلم الرياضيات في المدرسة الثانوية ناصري التوجه، فهو يعشق عبد الناصر حتى النخاع، ويقول إنه الوحيد الذي يملك مشروعا نهضويًّا عربيًّا موحِّدًا للامة ومعاديًا للاستعمار الذي نهب ثرواتها. معلم الرياضيات لا يرى وجودًا ولا أهمية لقوى قومية في الساحة العربية، أما الأحزاب القومية الموجودة فعليها حلّ نفسها والانصهار في حزب عبد الناصر، وكذلك الشخصيات القومية».

معلم التربية الإسلامية الذي لا يقتنع بالفكر القومي؛ لأنه يعتقد أن لا حاكميّة لغير الله، دون أن يحدّد للناس كيف يكون ذلك، راق له خلاف أنصار عبد الناصر مع غيره من القوميين، فراح يحرّض على عبد الناصر وأتباعه، مدّعيا أن عبد الناصر شيوعي كافر جاء لينفّذ مخطط الصهيونية العالمية القضاء على العروبة والإسلام، وأنه يريد تصفية الأحزاب القومية ليبقى وحده ممثلا للفكر القومي. معلم التربية الإسلامية سياسي متابع وذكي، وهو يعرف ماذا جرى خلال الوحدة المصرية السورية وبعدها. الطلبة تغلب عليهم العاطفة، وهم قليلو خبرة في ألاعيب الكبار وتصفية الحسابات بين الأحزاب والقوى المتصارعة. الطلبة يخشون على الأمة العربية وعلى حزبهم القومي الطليعي الذي يؤمن بأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. يخشون الشيوعية التي لا تؤمن بالقوميات ولا بالديانات، ويخشون عبد الناصر الذي لا يريد أن يرى غير نفسه ممثلا للفكر القومي.

اجتمعوا في كهف رطب مظلم من كهوف حارسة المنتشرة في الجبال حولها، في ليلة مظلمة من ليالي عام الحزن ذاك. قرّر الطلبة أخذ أمر إصلاح الأمة الواحدة ذات الرسالة الخالدة بأيديهم الصغيرة.

في الصباح هشَّمت مجموعة منهم رأس المعلم وسط الطريق المؤدي إلى المدرسة، وسالت دماء بريئة في شوارع حارسة التي لفَّها الحزن والحيرة والذهول.

يضيف والدي: تم احتواء الموقف. الحكومة أرسلت طائرة عمودية ونقلت الأستاذ إلى العاصمة، تعرّفنا على الجناة بسهولة، وأصلحنا بين عوائلهم وعائلة المعلم. لم نستطع إدانة معلم التربية الإسلامية لأن الطلاب لم يعترفوا بأنه حرَّضهم على ضربه. بعد مرور الزمن، يمكن مراجعة الأحداث بعقل بارد وأخذ العبر منها، التقيت الشباب الثلاثة الذين شاركوا في عملية الاعتداء وقد أنهوا دراستهم الجامعية في العراق، وأصبح أحدهم مهندسا زراعيا، والآخر طبيب أسنان، والثالث مهندس كهرباء. سألتهم بود ما الذي دفعهم لفعلتهم الشنعاء تلك. قالوا إن معلم التربية الإسلامية صوّر لهم معلم الرياضيات عدوًّا للأمة العربية الواحدة، وعدوًّا لرسالتها الخالدة؛ الإسلام. وكانوا جميعا نادمين واعتبروا أن ذلك اليوم أسوأ يوم في حياة كل منهم.

قال «النورس» الذي قاد المجموعة لتنفيذ العملية: «إن الهدف منها حماية حزبنا وأمتنا العربية الواحدة ورسالتها الخالدة من عبث معلم الرياضيات الناصري. كنت أشعر كأني قائد فرقة إعدام. لكني عندما رأيت، بعد أن هوت هراواتنا على رأسه وجسده، دماء المعلم تسيل على أرض الشارع وهو ملقى على الأرض، اعتقدت أنه مات، وأن عملنا تجاوز حدّه المرسوم له أصلا. أمرت رفاقي بالتوقف عن الضرب والتفرق». ويضيف: «والآن، بعد مرور زمن طويل على تلك الحادثة، بت أخجل من نفسي. لا أرغب في الحديث عنها، ولا تذكّرها، لكن حلقي ما

زال يتيبس ويجف اللعاب فيه كلما تذكرت ذلك الصباح من ذلك العام الذي انتشر فيه الحزن في سماء حارسة. شاركت في ضرب المعلم بهراوتي وبقوة على رأسه، ورأيت الدماء تسيل وتخضّب عنقه الرقيق، ثم تواصل جريانها فوق ملابسه الأنيقة التي كان يرتديها، وتلطخ شعرات رأسه القليلة التي كانت مصفوفة بعناية في ذلك الصباح، وحذاءه الذي كان نظيفًا ولامعًا. كان أنيقًا دائما في لباسه، ورقيقًا في كلامه، لا أدري كيف استطاع معلم التربية الإسلامية تشويه صورته في أذهاننا وتجريدنا من إنسانيتنا، لا عذر لنا إن قال الناس إننا كنّا صغارًا في السن».

أما شريكه الحناوي فقال: «أنا لم أكن إنسانًا في ذلك الموقف، إنما كنت وحشا صنعه معلم التربية الإسلامية في المدرسة. كان يجمعنا نحن الطلبة القوميين ويبدأ سرد حكايات عبد الناصر ومخططه للقضاء على العروبة، ويشرح لنا بعض مسائل الرياضيات وكأنه يقول لا حاجة بكم لمعلم الرياضيات، أنا أعلّمكم كل شيء.

تبيّن لي أنني كنت ساذجًا، جبانًا متهورًا بعد أن هوت هراوتي تلك على رأس المعلم وهشّمت جمجمته. يا للعار!».

وكان ثالثهما ولقبه الصقر قليل الكلام، اختصر الموقف قائلا: «كنت خائفا أن يموت المعلم، وأُصبح قاتلا. لقد اقترفنا عملًا مخجلًا يندى له الجبين». لكنه صمت لحظة وهو ينظر إلى الأرض بين قدميه، ثم أضاف ضاحكًا: «لكني لغاية الآن لا أعرف كيف اجتمعنا ثلاثتنا في مقام الولي

العجمي بعد هروبنا دون اتفاق. كنا نرتجف خوفا، وكأننا نريد من الولي العجمي أن يخفينا تحت جناحه. أنا اليوم لا أجرؤ على دخول المقام».

عتيّق الجزار

في الخريف قد تكون حزينًا حتى من دون سبب.
أنطون تشيخوف

حارسة..

أبي هو الذي أخبرني عن سر قوّته، قال: «بكل اختصار، عندما تكونين بين الناس ومعهم، هم يمدونك بالقوة. أنا أشعر بالقوة أكثر من الحكومة، فهي ليست مع الناس. عندما أقف أنا في مواجهتها، سيقف الناس إلى جانبي». ويضيف: «أنا كنت دائما في عملي إلى جانب الحق والدفاع عن المظلومين، أنا كنت محامي المعارضين في الوقت الذي كانت فيه الحكومة ضد الحزبيين، ولم أكن أفرّق بين شيوعيّ أو قوميّ أو إسلاميّ، بين غنيّ أو فقير. وإن سألتني لماذا كنت مع المعارضين، سأجيبك لأنني كنت أجد فيهم وطنيين حقيقيين، بصرف النظر عن الاختلافات الفكرية معهم. موظف الحكومة الذي يدافع عن الحكومة ليس بالضرورة ألّا يكون وطنيًّا، فلا أحد يعرف موقفه الحقيقي إلا إذا انتفت المصلحة. المعارض يعارض حكومة ولا يعارض وطنًا».

غرقت في أوراقه الكثيرة التي كتبها على مدى سنين طويلة، ووجدت أنه كان يخطط لتأليف كتاب عن تاريخ حارسة، فقد جمع العديد من

المراجع، وكان يقرأ ويضع الملاحظات، ويدوّن أفكارًا في دفتر خاص. وأنا أجده يمثل حارسة وتاريخها، القديم والمعاصر، فهو لم يترك شاردة أو واردة إلا جمعها، أو دوّنها، أو وثّقها، وجمع صورًا كثيرة من مناسبات عديدة. أنا بحاجة إلى وقت طويل جدًّا لفرزها والتعامل معها. لست مستاءة، فالعمل معها يُبقي أبي حيًّا في حياتي.

أعجبني كثيرًا ما كتبه أبي بخط يده عن عتيّق الجزّار، تلك الشخصية الطريفة، الذي، وإن كان جزّارا خشن الملامح والطبع، ويسكن بجوار المقبرة، إلا أنه كان يملك من الوعي السياسي ما يكفي لشد الانتباه له، وقد كان صاحب موقف ومحبًّا للحرية، ومواظبًا على حضور حلقات النقاش السياسي التي كان أبي يديرها مساء كل يوم في مقهى الخشمان. كتب أبي عنه يقول: «عتيّق يحتفظ في حانوته الصغير في السوق بمذياع معلَّقٍ على الجدار، مثبِّتًا مؤشره على محطة الـ «بي بي سي» التي تبث بالعربية، ومعلِّقًا إلى جانب المذياع صورة للزعيم عبد الناصر، وتحت الصورة سيفًا قديمًا يدّعي أنه لجده الذي حارب العثمانيين قبل أكثر من مئة عام. يُقال إن الأتراك العثمانيين عندما انسحبوا من المنطقة أخذوا معهم شقيقه الأكبر لأنه كان أحد جنود الحامية العثمانية في المدينة. يحتفظ عتيّق بجيبه بقلم، ولا يتحدث إلا واقفًا، ممسكًا القلم بيده اليمنى، محرّكًا إيّاه في الهواء وهاويًا به كأنه ساطور تقطيع اللحم.

يعتقد السيد عتيّق أنه لا يليق بإحدى الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية أن تبقى مستعمرة لأمة تناضل من أجل استقلالها، لذا أبرق إلى الرئيس الفرنسي ديغول بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، يدعوه إلى الانسحاب من الجزائر. كما أبرق إلى أمين عام الأمم المتحدة مستنكرا صمت المنظمة الدولية على تواطؤ فرنسا في نقل تكنولوجيا مفاعل نووي إلى إسرائيل، وأظن أنه أول من استخدم عبارة «معايير مزدوجة» (Double Standards) في برقيته تلك.

استعان عتيّق بخوري اللاتين الذي يجيد الفرنسية في كتابة البرقية للجنرال ديغول، كما استعان بالشاب محمد المفضّي، الطالب في الجامعة الأمريكية، لكتابة البرقية التي أرسلها للأمين العام للأمم المتحدة باللغة الإنجليزية. وأبرق لعبد الناصر برقية كتبها بدمه بعد هزيمة حزيران سنة 1967، كانت آخر برقياته للخميني مهنئًا بإسقاط نظام الشاه عميل الأمريكان، وطالبه بإغلاق سفارة العدو الإسرائيلي في بلاده، وأصرّ على كتابة البرقية باللغة العربية، فهو يعرف أن الخميني يتقن العربية جيّدًا».

العم مسلّم

أنا مجنون... مع فترات رهيبة من التعقّل.

إدغار ألان بو

حارسة..

استغربت أن يفرد أبي صفحات يسرد فيها سيرة العم مسلّم، ذلك العجوز الزاهد، الذي يعرفه كل سكان حارسة، وربما امتدت معرفته إلى خارجها. الجميع يحترمونه، والبعض يهابه، فهم يعتقدون أن لديه قدرات خارقة، ويحكون عنه قصصا كثيرة في هذا الخصوص، ولا شك أنه قارئ نهم، يصفونه بدودة الكتب، فهو يقرأ كل ما تصل إليه يداه، يقرأ في التاريخ والسياسة والفلسفة، وعلم الفلك، والبناء، والاختراعات، حتى إنه قرأ في كيفية بناء القلاع، ويبدو أنه كان مأخوذًا بقلعة حارسة، وحائرًا بكيفية بنائها، والقليل من الشباب كانوا يسخرون منه ويمازحونه حول زوجته الجنية، بعض النسوة يَخفْنه ويتعوذن منه، فهو يقول أشياء تصدُق غالبًا.

كان أبي كلما رآه يمر من أمام المنزل يدعوه للدخول، ويعامله معاملة الضيف. إن كان موعد الطعام يصرُّ عليه أن يجلس معنا لتناول الطعام،

لكنه كان غالبًا ما يكتفي بكأس الشاي، كان يحب الشاي كثيرًا، خاصة الذي تصنعه أمي، وتضيف له ورقة من المِلّيسة العطرة.

كان يتحدث في كل شيء، ويشدُّ الجميع إلى أحاديثه التي يختلط فيها الخيال بالواقع، تختلط فيها التحليلات بالنبوءات، والمعلومات بالمعتقدات، وتكتمل الجلسة عندما يكون إخوتي مجتمعين، يسألون عن كل شيء، عن أمور يكون قد قرأها أو ذكريات عن ماضي حارسة.

حالاته المخيفة هي عندما يشرد طويلًا، ولا يعود يتحدث مع أحد أو يسمع أحدًا، كنا نعرف أنه سيخبرنا برؤيا أتته، يقول كلمته ويمضي، ويترك الحاضرين حائرين، تتخطفهم التأويلات والمخاوف.

كتب والدي: «كنا نجلس في مقهى الخشمان في ذلك اليوم، وكان العم مسلّم معنا. العم مسلّم، لا يلعب النرد أو ورق الشدّة، يجلس على كرسيّه، وبيده عصاه يتكئ بها على الأرض، ويحتسي الشاي الذي يقدمه له باتع الخشمان مجانًا. كنا يومها نتحدّث عن الحلف الذي تريد بريطانيا اللعينة أن تزجنا به دفاعًا عن مصالحها، وكنا نعرف، بالرغم من غضاضة أعمارنا، أنها تريد أن تبني طوقا حول الاتحاد السوفييتي. قلنا لن نخوض حرب غيرنا، ونحن لسنا وقود حرب بريطانيا التي قضت على أحلام العرب بإقامة دولة قومية، ودعمت الصهاينة ببناء دولة على أرض فلسطين العربية. فجأة نظرت ناحية العم مسلّم، وجدته شارد الذهن جدا، أشرت للأصدقاء أن ينظروا، اتجهت أنظار الجميع إليه، وساد صمت

طويل، وكان الجميع ينتظرون ما سيقوله. فجأة نهض، وأعناقنا مشرئبة نحوه، قال:

- سيسقط، والثمن كبير، سجن في الصحراء سيمتلئ بالشباب.

ويضيف أبي، عادت العيون قلقة، ينظرون في وجوه بعضهم بعضًا، أدركت أن الخوف تسرّب إلى قلوب الشباب، ولم أكن أقل منهم خوفا، لكني امتلكت الإرادة كي أعيد إلى الجلسة حيويتها والحماس إلى نفوس الشباب، قلت:

- سيكون الثمن كبيرًا، نعم، ونحن لها. ألم يقل شاعرنا الكبير أحمد شوقي:

وما نيلُ المطالــبِ بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدامُ كان لهم ركابا

ألم نقل معه:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يُدَقُّ

ودعوتهم إلى توزيع الورق وأن نعود إلى اللعب.

هذا هو العم مسلّم، يقول أشياء لا تُعرَف إن كانت رؤىً أو استنتاجات مبنية على معرفة بالموضوع، لكنه كان يصدُقُ غالبًا، أو يقترب من الحقيقة.

ويقول والدي، كنّا مرة نتحدث عن مواجهة دولة الاحتلال، وأنها بنت تحصينات هائلة يصعب اجتيازها على القناة، ولديها أسطول من أحدث

الطائرات الحربية وأحدث أنواع الأسلحة. اختلفنا حول أسلوب المواجهة، قال نجيب: الجيوش العربية في وضعها الحالي عاجزة عن المواجهة، دولة الاحتلال تقف خلفها أمريكا وكل دول الاستعمار. قال أمجد: ونحن بإمكاننا أن نتحالف مع عدو أمريكا. قال جريس: إذا لم نعتمد على أنفسنا، ونراهن على وحدتنا، لا يمكن أن ننتصر على الاحتلال، قال مصطفى: إذا كانت الجيوش التقليدية فشلت، فإن حرب العصابات هي الحل. فجأة تدخّل العم مسلّم وقال: تحصينات من رمل، ستذوب في ماء البحر، ما مات صلاح الدين.

صفن الجميع، لكن العيون كانت مشرقة، وسرعان ما عادوا إلى اللعب، إذ إن الكلام الغامض أعطاهم جرعة من التفاؤل، لكن الشك ظل يراود أحد الذين يجلسون معنا، عاد ليقول:

- آخ منك يا عم مسلّم، تلقي أفكارك وتمضي، وتتركنا في حيرة.

قلت:

- فكرة العم مسلّم خيالية، لكنها منطقية، التحصينات التي أقامها العدو تحصينات رملية، وإذا ما تعرضت للماء تذوب، والماء موجود، لماذا لا يُستخدَم لفتح ثغرات في التحصينات؟

وفي مكان آخر يذكر أبي قصصًا أخرى مع العم مسلم. كتب يقول: كنّا نجلس في الشرفة «البرندة»، وقد مر العم مسلّم من الشارع السفلي. رأيته من مكان جلستي، فناديت عليه ودعوته. جلس معنا، في الأثناء سمعت

صوت زجاج يسقط ويتكسّر، هرع الأولاد إلى الداخل، كانت أم ناصر تقف ذاهلة أمام التلفاز وقد أسقطت ما كانت تحمله بيديها عندما رأت رئيس مصر يهبط من الطائرة في تل أبيب، التحقتُ بالأولاد عندما شعرت بالصمت المطبق، وجدتهم وقفوا جميعا كأن على رؤوسهم الطير، حتى الأطفال وقفوا حيارى، ينظرون في وجوه آبائهم الشاحبة المكفهرّة، ناصر يضرب رأسه براحة يده ويحوقل، أسامة تمتم بعبارة «عميل الأمريكان»، وعاد إلى الشرفة، إبراهيم شد على أسنانه وخرجت كلمة خائن من بين أسنانه كأنها الرصاص. يسألني حفيدي:

- جدي، ماذا حدث؟ لمَ الجميع صامتون؟

قلت كلاما لم يفهمه الصغير، لكن الكبار فهموه:

- هذه طعنة في ظهر الأمة! طعنة ستكون مؤلمة أكثر من هزيمتنا في 48 و67. إنه يسلبنا فرحتنا بنصر العبور.

وقف العم مسلّم متأملًا الوجوه الواجمة، وبعد لحظة صمت وتأمُّل اتجه نحو الباب وهو يقول كلاما غير مفهوم كالمعتاد:

- فعلها، سيدفع الثمن، ستسيل دماء.

سألت أبي مرّة عن حكاية زواج العم مسلّم من جنّية، ضحك كثيرا، وقال:

- هل تقصدين رقية ابنة شمهروش؟ العم مسلّم رجل ذكي، لقد علم أن الناس لا يصدقون ما يقول إلا لكونه يتلقى هذه الرؤى من زوجته الجنّية، فسكت ولم ينفِ ظنهم. وكان الناس البسطاء في هذه المدينة يعتقدون أنه متزوج من جنِّيّة بعد أن أطلق شيخ الكتّاب تلك الإشاعة عنه. كان مسلّم أكثر الطلبة حفظًا لما يُعلّمه الشيخ، وأقربهم إلى قلبه، ويبدو أنه كانت لديه رغبة في تزويجه من ابنته، لكن مسلّمًا كان مشغولا بأشياء أخرى، كان يسأل: «كيف تشاد القلاع؟» ويكرر السؤال. يئس الشيخ منه فغضب وطرده من الكتّاب شر طردة قائلا له: «اذهب وجدْ لك جنِّيّة، فإن قبلت بك زوجًا أخبرتك كيف تُشيَّد القلاع، فالجن يبنون القلاع». وفي الحقيقة أن الشائع كان أن الجن هم من بنوا تلك القلعة التي ترينها أمامكِ. ثم جاءت امرأة وأشاعت أنها رأت الجنّية رقية زوجة العم مسلّم، قالت إنها أثناء مرورها من أمام غرفة العم مسلّم التي كانت هي كل بيته، سمعت صوت غناء أنثوي، كان صوتًا جميلًا وغناءً عذبًا، وتقول إنها دخلت الغرفة، وكانت أشعة الشمس تدخل من النافذة المفتوحة وتسقط في وسط الغرفة، وهناك، في بقعة الضوء، كانت تقف الجنِّيّة زوجة العم مسلّم عارية تسكب الماء على

رأسها فيجري مبلِّلا شعرها الأسود الطويل المنسدل على كتفيها كأنه كسف من الليل، ثم يتابع الماء جريانه على جسدها الأبيض الرشيق الذي ينتصب منتعشًا بالماء. ووصفت عينيها بأنهما واسعتان خضراوان كأنهما حبتا لوز اكتمل نضوجهما وتقوّسهما، وخصرها بأنه نحيل يكاد يدخل في إسوارة المعصم، وشفتيها بأنهما حمراوان رقيقتان تقطران شهدًا. قالت: بشرتها بيضاء ناعمة كأنها الزبدة البيضاء الصافية، وأصابع يديها دقيقة كأنها أقلام ذهبية، وساقاها باستقامتهما كأنهما برجان أسطوانيان يحملان كرة من مرمر أبيض صافٍ، انقسمت إلى نصفين متساويين تماما في الشكل وفي الاستدارة. أما صدرها الناهد وثدياها اللذان يقفان شامخين يتحديان الموت، فيعلنان بلا خجل أن الحياة امرأة، وأن الموت رجل.

ضحك والدي وهو يكمل شهادة المرأة، فسألته مستغربة ضحكه، أجاب:

- يا له من خيال مجنّح! الناس يا ابنتي يميلون إلى أن يصدّقوا الخيال ما دام يُرضي أهواءهم، وهم يتخيّلون لأنهم يريدون أن يصدّقوا. وفعلا، كانت النساء يسرعن إلى الاستحمام كلّما ظهرت الشمس من بين الغيوم، لعلهن يصبحن بجمال رقية ابنة الجان. وما زال

بعض الرجال يحسدون العم مسلّم على زواجه من الجنّيّة فائقة الجمال.

قلت:

- أما أنا فتروقني هذه الأشياء، ليس لأنني أصدّقها، بل لأن الخيال فيه إبداع. لا بد أن أجعل الجنية رقية إحدى شخصيات حارسة في اللوحة التي أُعدّها.

وكنت حينها أُعد لوحتي «وجوه حارسة»، فأضفت إليها العم مسلّم، إذ رسمته في قلب اللوحة، فهو شخصية مركزية، أما الجنية رقية فقد رسمتها على برج القلعة وهي تستحمُّ بأشعة الشمس لتكون الوجه النسوي الأكثر بهاء.

حدثني المخرج فراس عن العم مسلّم وأدهشني ما قاله لفراس، قال: «إن الأفراد العاديين لا يُحدِثون فروقًا ظاهرة في الحياة، أما الأفراد غير العاديين فهم من تتحدث عنهم الكتب، وتروى عنهم الروايات. الأفراد العاديون تعجز عقولهم عن إدراك الباطن الخفيّ، الذي هو أرفع وأرقى مكانة من الظاهر، يكتفون بما فهموا، ولا يبذلون الجهد في الغوص أعمق. الأفراد غير العاديين يُنزل الله عليهم ذوقًا رفيعًا تتشرّبه قلوبهم قبل عقولهم، وأرواحهم قبل أبصارهم».

أذهب إلى مقام الولي العجمي في كل ليلة، وأنكبّ على القراءة هناك. أترك باب غرفتي هذه مفتوحا، لا أحد من اللصوص أو الجيران يجرؤ

على الدخول لاعتقادهم أن زوجتي الجنِّيّة ومعها أطفالي موجودون في الداخل. زواجك من جنِّيّة، كما يعتقد الناس، يعطيك الكثير من المزايا مع الكثير من القوة. يجنّبك اللصوص المنتشرين في المقاهي والطرقات. ويُبعد عنك تدخل الآخرين في شؤونك الخاصة.

قبيل موعد صلاة الفجر أذهب إلى المسجد الكبير، لكنني لا أصلي مع الإمام والمصلين الآخرين. إن صلاة الفجر في ذلك المسجد لا تخلو من أن تكون اجتماعا حزبيا، وهم لا يرحّبون بوجودي بينهم لأنني لست عضوا في جماعتهم.

أسعى لأخذ المعرفة مباشرة من الله. في الوقت الذي يرى فيه البعض أن الاتصال مع الله يحصل فقط مع شيوخهم، لا يجيزون لأحد غيرهم محاولة الاتصال مع الله.

عرفت أن أولياء الله الصالحين في حارسة لا يفرّقون بين أبنائها. فالمؤمن وغير المؤمن عندهم سواء.

وفي ليلة اشتد فيها عويل الرياح، وأغلق الناس أبواب منازلهم وناموا، قمت بنبش قبر الولي العجمي، كنت أفكّك حجارة القبر بيدي متفاديًا ما أمكن الطرق بالمطرقة، وقد اهتديت إلى بوابة القبر. بعض حجارته كانت محفورة فيها مسالك تشبه القنوات، والبعض الآخر له نتوءات بارزة تدخل في تلك المسالك. نظرت إلى داخل القبر، شاهدت مشكاة نحاسية مضيئة معلقة بالسقف، تدور حول محورها، مكتوبا عليها بخط عربي

جميل كلام كثير، وأسفل منها صندوقان من الخشب. مددت يدي نحو المشكاة، لكنها لم تصل إليها، بل ارتدت إليّ كأن تيارا كهربائيًّا قد مسّها. سمعت صوت مولانا الولي العجمي يقول لي: «اقترب يا مسلّم، ولا تخف». كيف يمكن لي ألّا أخاف؟! من أنا حتى لا أخاف؟! لقد مُلئتُ رعبا. أطلقت ساقي للريح، هربت باتجاه منزلي القريب، الشوارع خاوية وأزقة المدينة في تلك اللحظة كانت خاوية لا تجوبها إلا الرياح العاتية في تلك الليلة الشتوية. ألقيت بجسدي على الفراش، كانت شفتاي تتلوان ما أحفظ من آيات القرآن. لكن صوت الولي العجمي يطغى على صوتي المتهدج. يقول لي اقترب ولا تخف يا مسلّم، تعال وخذ الصندوقين، ودعك من المشكاة التي لن يراها أحد سواك. هدأت أنفاسي شيئا فشيئا، واستعدت قواي وعدت إلى المقام. أخذت الصندوقين، لكني لم أجد المشكاة المضيئة، ولم أسمع صوت مولانا الولي العجمي. أغلقت القبر جيّدا وعدت إلى غرفتي.

فتحت الصندوق الأول، كانت بداخله أوراق مصقولة، عليها كتابات كأنها كتبت بالأمس.

رسالة من الله لي جاءت بواسطة هذا الولي العجمي يدعوني فيها الله – سبحانه وتعالى– إلى العناية بهذه المدينة العظيمة.

فتحت الصندوق الثاني فوجدت فيه كتابين اثنين كتبهما الولي العجمي، أحدهما لم يكتمل ولم ينته منه شيخنا بعد.

في بعض الليالي التي يصغر فيها القمر فيصبح هلالًا رقيقًا، أرى المشكاة النحاسية مضيئة في غرفتي هذه، وأرى كتابات طبعت على الجدران يخرجها الضوء من المشكاة.

حوار بلا قيود

أكثر شيء مرعبٍ وأكثر مرارة وذلًّا ،
طلب المساعدة من الآخرين.
روبن ديفيد غونزاليس غاليغو

العقيد أبو الشامة..

تتطور الأمور في البلد باتجاه لا يسرُّ، لكنْ نحن مع القيادة. قيادتنا حكيمة تعرف مصلحة البلد، ولديها رؤية ثاقبة للأمور. عندما حدثت هبّة الجنوب، لم يكن أحد يتوقع أن تتطور الأمور وتسير بهذا الاتجاه؛ مع أن ما حدث من وجهة نظري، لم يكن أكثر من فوضى أمنية، إلا أن القيادة ذهبت باتجاه آخر، فقد استجابت لكثير من مطالب الأحزاب المعارضة التي تعمل خارج القانون، فرفعت الأحكام العرفية، وأعلنت موعدًا لإجراء انتخابات برلمانية جديدة، وتنوي إعادة التصريح للعمل الحزبي، وشّكَّلت لجنة لصياغة ميثاق وطني يكون بمثابة عقد اجتماعي جديد بين المواطنين والدولة، وللأسف شاركت فيه الكثير من الشخصيات المعارضة والإسلاميّة. أي ميثاق سيكتب هؤلاء الذي كانوا حتى الأمس يريدون إسقاط الحُكْم وينفذون أجندات خارجية؟! لكني أثق في القيادة،

لطالما عبرت بالبلاد أزمات كبيرة: المظاهرات ضد الحلف في الخمسينيات، وحكومة الوحدة الوطنية، ومحاولات الانقلابات من قادة الجيش، وحرب العام 67، وأحداث العام 70، فكيف لا تخرج من هذه الأزمة؟!

أنا شخصيًّا لا أدري كيف سأتعامل من خصوم الأمس الذين لم أرحمهم يوما خدمة للقيادة وللدولة. ولا أعرف كيف سينظرون إلي. أنا في نهاية المطاف مواطن، عندما أتقاعد، وأنزع عني رتبتي وهذه البزة العسكرية، سأعود مواطنًا عاديًّا. يا لها من لحظة صعبة؛ أن تعتاد طوال أربعين عاما على ممارسة السلطة، وتجعل الآخرين يخافونك، وتكون مهاب الجانب، وفجأة تصبح مواطنًا عاديًّا، تدخل محل الخضار، والبقالة، وتذهب عند الميكانيكي لتصلح السيارة، وتقف في الطابور لشراء الخبز، وتقف عند صندوق الكاش وتسمع عبارة: «الذي بعده»!! أنتَ رقم بين أرقام، في حين كنتَ علمًا بين أعلام.

لن أستسلم لقدري، سأعانده، أعرف أنني ربما أُحال إلى التقاعد في أي وقت. لكن إذا ما أُجريت انتخابات برلمانيّة سأرشح نفسي، وعلى الدولة أن تدعمني، ألم أقدم لها الخدمات طوال أربعين عامًا؟

آلمتني أسناني فنصحوني بطبيب اسمه صالح، عيادته في حيّ الميدان، أذهب إلى طبيب الأسنان مجبرًا، فأنا لا أطيق جهاز حفر الأسنان، إنه يرعبني، صوت أزيزه يخترق الرأس، وألم الرأس عذاب رباني.

دخلت عيادة الطبيب، استقبلتني الممرضة، وسألتني إن كان لدي موعد مسبق، أخبرتها أن أسناني تؤلمني جدا، ولا موعد لدي. طلبت مني أن أنتظر فأمامي مريضان، أحدهما على كرسي العلاج، والآخر ينتظر. خطر ببالي أن أخبرها من أكون (بالتأكيد أنا لم أحضر مرتديا لباسي العسكري)، لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة، أعرف أن الأطباء لا يجاملون، فهم يتعاملون مع المرضى على درجة واحدة، فكل مريض لديه أوجاع. لحسن الحظ، خرج المريض الأول سريعًا، والمريض الثاني لم يمكث طويلا، فقد وصف له علاجًا وحسب.

عندما خرج الدكتور إلى غرفة الانتظار التقت نظراتنا وتوقفت للحظات، بدا أنه يعرفني، وأنا أعرفه. توقف صامتًا للحظة بدت لي طويلة بما فيه الكفاية، دعاني للدخول من دون الابتسامة التي اعتاد الأطباء أن يستقبلوا بها مرضاهم. كان في غاية الجدية، طلب مني أن أجلس على الكرسي، وسألني عن شكواي. لاحظت أنه يتفرّس في وجهي. أخبرته أن أسناني تؤلمني، سألني إن كان الألم يظهر في الليل، أو إن كان يظهر عند الطعام الحار والبارد، وهل هو ألم مستمر، ثم طلب مني أن أفتح فمي وأحدِّد مكان الألم. أدخلَ المرآةَ الصغيرة وكشف عن أسناني وهو يهمهم، ثم نقر بأداة على الضرس الذي يؤلمني وسأل إن كان يؤلمني، وأخيرا أخبرني أن هناك أكثر من نخر عميق في أسناني، وجميعها تحتاج

إلى تنظيف وحشوات فضّيّة، ثم سألني إن كنت مدخنًا، فأجبت بالإيجاب، قال بصرامة فيها بعض السخرية:

- أنت تحتاج لحفلة كاملة.

التعبير ذكّرني بتعبيراتنا عند التحقيقات: «خذوه للحفلة». يعني بعض إجراءات التعذيب (نحن لا نلف وندور، نقول ذلك بكل صراحة) كي يعترف المتهم. وها هو الطبيب يريد أن يقيم لي حفلة كاملة. أتراه أحد أولئك الذين أقمنا لهم حفلة في الماضي؟ رحت أسترق النظر إلى وجهه. كانت نظراته تسقط عليَّ من علٍ كأنها سهام حادة. سألته إن كان يعرفني. أجاب بتجهم:

- يُهيأ لي أنك الشاويش أبو الشامة.
- أنا العقيد أبو الشامة.
- زمن طويل مضى، بالتأكيد ترقيت. وأنت هل عرفتني؟
- أأنت صالح الشيوعي؟
- نعم أنا هو (ابتسم وأضاف): ها هي الأيام تدور، يا نظام بيك.

لم يستكمل التحقيق، أصدر تعليماته بكل جدية، وراح يباشر عمله، قال:

- سأخدّرك، وأعمل على ثلاثة أسنان مرّة واحدة. ستتألم، إن اشتدَّ الألم كثيرا فقط ارفع لي يدك.

قلت له مستسلمًا وأنا خجل تمامًا:

- أنا أخاف، يا دكتور من الجهاز.

ابتسم قليلا، ونظر إليّ من طرف عينه. قال:

- نحن لم نقلها، على صغر سننا في ذلك الوقت وسوء أدواتكم.
- هذا موضوع مختلف (وأضفت ضاحكًا): لو كنت أعرف لاستعنتُ بجهاز الأسنان بدلا من «الفروجة».
- لكني هنا أعمل لأزيل عنك الألم، أما أنتم فكنتم تؤلموننا وتتعمدون أن يبقى الألم محفورا في القلب والذاكرة.
- دكتور، لا أظن أن هذا وقت تصفية الحسابات.
- قلت لك، أنا أعالجك، ولا أعذبك. أنت تتعذب من تلقاء نفسك، الله هو من يعذبك.
- ها أنت تؤمن بالله! وتعترف أنه هو من يرسل الألم للإنسان. هل عدت لرشدك؟
- دع عنك هذا الآن وافتح فمك جيدا حتى لا تعيق عملي، هذه فرصة أن أتحدث أنا فقط، وأنت تستمع. مفهوم الله، يا سيدي، عندنا يختلف عنه عندكم. الله عندنا يسكن داخل مخلوقاته وينير الطريق للقلب بمحبة الناس كما ينير الطريق للعقل للتفكير في كل شيء يمكن أن يصل إليه. بينما مفهوم الله عندكم مراقبة الناس

والبحث عن الاختلاف عمّا تفهمون، ثم يلي ذلك التكفير وكيل الاتهامات من هنا وهناك.

رفعت يدي لعله يعطيني استراحة، فأتكلم. أوقف العمل، وأخرج عدده خارج فمي. تمضمضت في قليل من الماء المذاب فيه المعقم، ثم قلت:

- أنتم شيوعيون، وكنتم تجتمعون في مقام الولي العجمي ليحميكم مني. أنا لا أفهم كيف تستجيرون بأولياء الله لكي تضعوا خططًا تعارض نهج الله وسبيله القويم!! لطالما حدثتني نفسي أن ألقي عليكم القبض وأنتم مجتمعون في المقام، لكنّ شيئًا مجهولًا كان يمنعني؛ فللمقام حرمة لا يجوز الاعتداء عليها. لقد كان اختيارًا ذكيًّا منكم أن تجتمعوا في المقام.
- الناس في حارسة يُجمعون على أن مقام الولي العجمي مكان آمن، كان الغرباء عن المدينة يرتادونه طلبا للأمان. ونحن لا نتنكر لما يعتقده أهل حارسة. إننا منهم ونعمل من أجلهم.
- لكن قل لي، يا دكتور! ما هي حكاية الولي العجمي مع هذا المتشرد العم مسلّم؟
- العم مسلّم ليس متشردًا ولا مشعوذًا، إنه مثقف كبير، فهو «دودة كتب» كما يسميه أهل حارسة. هو وضع نفسه في خدمة المقام؛

يعتني به وينظفه وينير القنديل في مشكاته. هو يسكن بين القلعة والمقام. أظن أنه يستمد القوة من القلعة كما يستمد الروحانيات من المقام. ثم إن العم مسلّم موجود في الشارع، لماذا لا تستدعيه وتسأله عمّا يخطر ببالك.

أربكني بفكرته، فهمهمت، ثم قلت:

- سبق أن استدعيته رسميًّا في الخمسينيات، جاء لمكتبي وأمطرني بكلام لم أفهم منه إلا القليل، قال لي: أنا لا أخاف منك ولن أشي بأحد أمامك، إنك سوف تغادر حارسة مهزومًا، لكني أراك تعود إليها في وقت متأخر.

بدايات لا نهاية لها

إذا كنت تواقا لمعرفة الحقيقة، فابحث
عنها بنفسك، فلا أحد سيخبرك بها.
جوليان أسانج

حارسة..

قالت أمي ادعي إخوتك جميعا أن يأتوا فورا. كانت مثقلة بالهم، وكان ذلك باديا على وجهها وسلوكها، فلم تعد تتكلم كثيرا في الآونة الأخيرة، تمضي معظم وقتها بالعمل، وإن لم يكن هناك عمل تخلقه. سألتها ما بها، وأضفت:

- أنتِ لستِ على طبيعتك!

نظرت إليّ من تحت حاجبيها، وبعد صمت طويل قالت:

- هل يسرُّكِ وضع والدكِ؟ إخوتكِ لم يعودوا مكترثين ولا يتابعون التحقيقات.

جاء إخوتي، لم يتأخروا كثيرا، اعتادوا أن يلبوا دعوتها مهما كان الموضوع، سريعًا، يؤجلون انشغالاتهم ويحضرون. وهم يميّزون ما بين

الدعوة الخاصة، وغالبا ما تكون لمناقشة شأن عائلي، والدعوة العامة التي عندها يُحضرون عائلاتهم معهم. بادرتْهم غاضبة:

- هل يعجبكم وضع والدكم؟ هل نسيتم حقّه؟ صدّقتم كلام الحاكم الإداري، وها قد مرت خمسة شهور، لو كان المطلوب شخصا وزّع منشورًا سياسيًّا، لكانوا وجدوه بخمس دقائق.

بُهت إخوتي من كلامها، فطأطؤوا رؤوسهم وراحوا ينظرون إلى الأرض، استطردتْ:

- هذا البرجاس، هذا أبوكم، لا شخص آخر. حقّه سيأتي مهما كان، وسيدفع من كان خلف الاعتداء الثمن كائنًا من كان.

قام إبراهيم، وتقدم منها وقبّلها على رأسها:

- حقّك علينا يا أمي، لن نفرّط بحق والدنا. أنا ما زلت أصرّ أن السلطة تقف وراء الحادث. هذا واضح، ألم يحدث ذلك فورًا بعد اجتماع وجهاء حارسة.

تدخل ناصر، قائلا:

- لكن، يا إبراهيم، لم يتمكن أحد من إخبار الحاكم بمجريات الاجتماع.
- وهل المدسوسون قلة؟

احتجَّ أسامة:

- لا تقل ذلك، كل الحاضرين كانوا شخصيات وطنية.

عاد ناصر ليؤكد:

- يا إخوان، بين انتهاء الاجتماع والحادث أقل من دقيقتين. ولن يجرؤ أحد أن يتصل بالحاكم من تلفون المعزِّب، وكي يصل إلى بيت الحاكم يحتاج إلى نصف ساعة. من ارتكب الاعتداء كان يترصد أبي منذ مدة طويلة. لنكن منطقيين.

تدخلت أمي لتحسم الجدل:

- كل هذا الكلام لا يهمني. يجب أن يكون هناك حراك، يجب أن تعلم السلطة أننا لم ننسَ حقَّنا ولن ننساه.

قال أسامة:

- أعضاء حزبنا ينتظرون إشارة منّا.

قال إبراهيم:

- وحزبنا كذلك.

قال ناصر:

- والعشيرة كذلك.

قال أسامة:

- وماذا عن جماعتك؟

رد ناصر بغضب:

- أسامة! قلت لك ألف مرّة، أنا لست محسوبًا على جماعة، أنا مسلم، ولست «أخًا مسلمًا».

رد أسامة، ضاحكا:

- أنا آسف، يعني أنت الأصل، لكن علاقتك معهم جيدة، ألم يدعموك في البلدية؟ لماذا لم يعلنوا موقفا؟ أما زالوا ينظرون إلى أبي على أنه شيوعي؟
- هذا لا يهمني، أتعتقد أنني لم أفاتحهم بالأمر؟ عاتبتهم، ردّوا بأنهم يحترمون والدي كثيرا ويدينون الاعتداء، لكنهم ينتظرون ردًّا من المركز، أنت تعلم أنهم لا يتحركون إلا بتوجيهات من المركز، والانتخابات على الأبواب، يبدو أن لهم حساباتهم السياسية. عينهم على السلطة.

قال كريم الذي بقي صامتا طوال الوقت:

- بالمناسبة، ما هو موقفكم من الانتخابات، نحن لم نتحدث بذلك؟

ضحك إبراهيم عاليا:

- تحدّث المال أخيرًا. هل تنوي الترشح؟

رد كريم وقد شعر ببعض الحرج:

- أنت تعرف أنني أكره السياسة منذ ولادتي، لكن ألا ترون أن يترشح أحدكم؟ أبي كان ذات يوم نائبًا، لماذا لا يترشح أحدكم؛ أنتم السياسيين والمثقفين؟

وكأن كريمًا من حيث لا يدري ألقى حجرًا في المياه الراكدة، فاحتدم النقاش حول الموضوع، قال كريم:

- أنا أقترح أن نرشح حارسة، لماذا لا تكون أول نائب في البرلمان في أول انتخابات تشارك فيها المرأة بوصفها مرشحة؟!

قال ناصر:

- أنا أقترح أمي إذا ما أردنا ترشيح امرأة، أنا أضمن دعم الإخوان.

ردّت أمي التي كانت طوال الحوار تبدو كأنها غير مهتمة:

- ماذا بكم؟ أنا صحتي لا تساعدني على هذا العمل، كما أنني لا يمكن أن أترك أباكم.

عاد أسامة ليحرف الحوار:

- يا جماعة، الانتخابات مشروع وطني وليست مشروعًا عائليًّا. علينا أن ندعم مرشحين يحققون الأهداف السياسية التي نتفق عليها جميعًا: الحريات، التحرر من التبعية، التنمية، مواجهة المشاريع الصهيونية...

قال كريم:

- موقفك هذا لا يتعارض مع فكرتي بترشيح حارسة عن كوتا المرأة، وأنا جاهز للدعم بكل ما أملك.

كنت مضطرة أن أتدخل هنا عندما شعرت بإصرار كريم على فكرة ترشيحي:

- لكني أنا لست سياسيّة، أنا مجرد فنانة مثقفة، أرجوكم لا تزجّوني في مجال ليس لي فيه باع ولا ذراع.

قال إبراهيم:

- إذن لم يبقَ أمامنا إلا دعم تشكيل قائمة من القوى القومية واليسارية والوطنية المستقلة.

احتج ناصر:

- لا أفهم لماذا أنتم دائما تُخرجون الإسلاميين من دائرة الوطنية؟

رد أسامة:

- نحن لا نخرجهم، بل هم من يخرجون أنفسهم، وهم من يفرز الناس على أساس ديني.

كنت أراقب أمي طوال الوقت. بدت غير راضية عن الحوار، وقد أراحت رأسها على كفها منتظرة انتهاء الحديث، لكنها عندما وجدت الحديث يتشعب، نهضت وقالت بامتعاض شديد:

- الأفضل أن أقوم إلى عملي، تجادلوا أنتم حول الانتخابات كما تشاؤون، واتركوا حق أبيكم يضيع.

كانت تعلم أنهم لن يعودوا إلى نقاش موضوع والدهم إن لم تهز ضمائرهم. فاضطروا إلى العودة إلى نقاش الموضوع، واتفقوا على عقد اجتماع لوجهاء حارسة وتشكيل وفد لزيارة الحاكم الإداري والضغط عليه لكشف الحقيقة، وإرسال بيان شديد اللهجة للحكومة، متضمنًا تهديدًا بالتصعيد.

انتهى لقاء العائلة، وعدت أنا إلى أوراق والدي أبحث فيها عن أسرار غير معروفة لي، فلربما وجدت رأس خيط يقودني إلى معرفة المعتدي، ومن وراء الاعتداء.

مشاعر تائهة

الدكتور صالح..

من الصعب وصف الشعور عندما تلتقي بخصمك بعد مرور سنوات طويلة. خصمي ليس شخصا عاديا، وقد تسبب، ليس لي وحسب، بل لكثيرين آخرين بمعاناة كبيرة، دخلنا السجن بسببه، لا لسبب إلا لأننا كنا نحب وطننا كثيرا ونريد له المنعة والاستقلال والرفعة. طبعا كنا نعارض سياسات الحكومة الخاضعة لنفوذ الإنجليز الذين ناضلنا، نحن وآباؤنا من قبلنا، للتحرر من استعمارهم والتخلص من هيمنتهم على مفاصل الدولة، وردعهم عن دعمهم لعدونا التاريخي؛ الكيان الغاصب في فلسطين.

كدت أنسى صورته، رغم المآسي التي سبّبها لنا، واعتقدت أنه مات منذ زمن طويل، وطواه النسيان. هل سيذكر التاريخ أمثال هؤلاء؟ وبأي صفة وأي كلمات سيسطّر المؤرخون دورهم؟ أدرك أنه برغي في ماكينة كبيرة، ومن هم مثله يُستبدَلون في أي لحظة ببراغيَّ أخرى أحدث وأقوى، ثم يُلقى بهم في صندوق الخردة. وأدرك أنهم مجرد موظفين يؤدون وظائفهم، ويتفانون في تأديتها حتى يحظوا بالقبول لدى رؤسائهم، لكنَّ أبا الشامة كان شخصا مختلفا، كان يجتهد بالزّج حتى بالأبرياء لمجرد الشبهة، وكان يستمتع بذلك، ويمشي في الشوارع مستعرضا سلطته،

وقدرته على إلحاق الأذى بأي شخص، ويستمتع برؤية الجميع وهم يتحاشونه، وعندما يدخل مقهى الخشمان كانوا يلتزمون الصمت، أو يغادرون المكان بعد أن يتركوه له فارغا.

كنت ما زلت طالبا في الثانوية، ألتقي أنا وأصدقائي في مقهى الخشمان، نتحلّق حول الأستاذ البرجاس لنستمع لأحاديثه الشيّقة في القضايا السياسية. كان ضليعًا في السياسة، ويبهرنا بسعة اطلاعه ومنطقه في التحليل. وقد بدأ وعينا السياسي على يديه، عرّفنا من هم الإنجليز ونبهنا إلى خبثهم في السياسة، وسياسة التفرقة التي يتبعونها، وأطماعهم بالسيطرة على ثروات العرب واهتمامهم بالحيلولة دون وحدتهم، وزرعهم دولة الصهاينة في قلب الوطن العربي.

كان قد تخرج محاميا في جامعة دمشق وفتح مكتبه في ساحة حارسة الكبيرة. كان ملفتا بشبابه الجذّاب، وقامته الطويلة، وصدره العريض، وشعره الأسود الحالك المصفوف إلى الخلف والمدهون بالكريم، ووجهه الحليق اللامع، وبدلته السوداء، وربطة عنقه الخمرّية، وعطره الفوّاح، وشماغه الذي لا يفارقه. البرجاس لم يكن مجرد محامٍ يجلس في المقهى منظّرا على الشباب الصغار بتحليلاته السياسية، لكنه قاد المظاهرات ضد حلف بغداد. كان باتع الخشمان وعبد الرزاق السقّا يرفعانه على الأكتاف، ويهتف عاليا وهو يتصبب عرقا، وكان يقف على جدار المدرسة ملقيا خطاباته التي تثير الحماسة في جموع الشباب.

الأستاذ البرجاس، الذي أصبحنا نناديه تارة بالأستاذ وتارة بالشيخ، هو أيضا من كان يحمي الشباب، كان بمثابة جدار القلعة الذي يحمي ظهورنا، ويدافع عنا في المحاكم، فحملناه لاحقًا على أكتافنا وأوصلناه إلى مقعد النيابة. ما زلت أذكر اعتراضه أبا الشامة وإذلاله له عندما قال له: «أتراك أعدت فتح الأندلس، أم حرّرت فلسطين؟». بعبع أبي الشامة مات، مات في قلوبنا وفي ذاكرتنا، فلم نعد نخاف منه ومِمّن جاء بعده. وها هو أبو الشامة بشحمه ولحمه، لقد ازداد وزنه كثيرًا بعد مرور ربع قرن، وتكوّم بين يديَّ على كرسي الأسنان، إنه تحت رحمتي وسلطتي، آمره فيطيع، وأنهاه فينتهي. بالتأكيد لا شعور لدي بالخوف منه، هذا الشعور غادرني منذ أن رأيت البرجاس يهينه غير هيّاب، ولا شعور بالكراهية، فهو مريض عندي أولا، كما أننا صرنا مواطنين متساوين بعد هبّة الجنوب ووقف العمل بقانون الطوارئ. قد أكون أشعر بالشفقة على حاله، رغم أنه يبدو بأفضل حال؛ إذ ترقّى وأصبح مديرا للشرطة.

قفزت إلى ذهني وهو عندي حادثة اعتراض البرجاس له في واضحة النهار، وفي وسط السوق، وأمام أهل حارسة، ورحت أربط بين تلك الحادثة وحادثة الاعتداء على الشيخ البرجاس بعد اجتماع الستين الشهير، ففكرت أن أسأله رأيه لأعرف ردة فعله على الحادث، ولأستطلع شعوره بعد تلك السنين:

- ما رأيك نظام بيك (كنت أناديه نظام بيك، ليس من باب رفع الشأن، إنما لإبقاء الحواجز بيني وبينه)، بما حدث للشيخ البرجاس؟

همهم قليلا مترددًا بالإجابة، وكأنه لم يتوقع السؤال:

- مممم.. بالتأكيد ما حدث شيء مؤسف.
- ومن تعتقد أنه يقف وراء ذلك الفعل؟

خرج من الموضوع بذكاء، قال مبتسما:

- هل تحقق معي، ونحن ما زلنا نحقق في الموضوع؟

أدركت أنه لا يريد الخوض بالموضوع، وأنه لا يجوز لي أن أستمر بسؤاله عنه. لكن يبدو أن الحواجز الجليديّة بيني وبينه بدأت تذوب، أو أنه أرادها أن تذوب تدريجيًّا، فراح يسألني أسئلة شخصية. سألني أين درست، ومتى أصبحت طبيبا، ثم سألني سؤالا مباشرا، وكأنه يريد أن يزيح شيئا كان يثقل ضميره، وقال بابتسامة خجلى:

- أخبرني يا دكتور، بصراحة، هل ما زلت حاقدا علي؟

كان السؤال مفاجئا بصراحته ومباشرته، ولم أكن أتوقعه، ولم أطرحه على نفسي. كان الحوار يدور بيننا وأنا أشتغل على أسنانه، وكلّما احتجت إلى التفكير بسؤال أو جواب ما، آمره أن يفتح فمه، فلا يعود يتحدث أو يسأل، أما أنا فأظل حرًّا في اختيار الوقت المناسب للجواب. قلت له:

- لا أظن أنني حاقد عليك، ونحن لا نضمر الحقد لأحد إلا لأعدائنا.
- إذن نحن لسنا من الأعداء، هذا شيء جيد (ثم أضاف): لكن من هم أعداؤكم؟
- أستغرب، يا نظام بيك، أن تسألني هذا السؤال بعد هذه السنين الطويلة، وبعد العذابات التي أذقتمونا إياها.

رأيت أن هذه هي اللحظة المناسبة كي ألقي عليه خطابي دون أن يقاطعني، أمرته أن يفتح فمه وقلت: «نحن نرى في المستعمر عدوا، وبمحتل الأرض العربية عدوا، وبكل من يسعى لسلبنا حريتنا عدوا، وبمن يسلبنا لقمة عيشنا، ومن يستغلنا ويهدد مستقبلنا..».

ربما كان جوابي له بأنني لست حاقدا عليه قد فتح آفاقا لديه ليرتّب شكل العلاقة معي ومع رفاق الأمس ممن تسبب لهم بالأذى في نهاية الخمسينيات، فعندما سألته ماذا سيفعل بعد تقاعده، قال:

- بالتأكيد لن أجلس بالبيت بلا عمل، أمامنا انتخابات نيابية، سأترشح لها وأصبح نائبًا (ثم أضاف ضاحكًا وبدا كأنه يداعبني): وربما ستدعمني ورفاقك؟

بعد أن غادر، فكّرت بحجم الثقة لديه بالنجاح بالانتخابات، إذ قال قبل أن يخرج: «ألست أنا ابن الدولة، وأفنيت عمري في خدمتها؟ فأنا

أولى بأن أصبح نائبًا». لكن ما أثار تفكيري هو ثقته بأنني يمكن أن أنتخبه، أنا ورفاقي! هل يمكن لمن تعرض للسجن سنتين كاملتين، ثم كان مضطرًّا أن يغيب ست سنوات متواصلة في الغربة دون أن يجرؤ على العودة لبلده ليشمَّ رائحة الطابون في ثوب أمه، وليرى إخوته الصغار وهم يكبرون، وليملأ رئتيه في عطلة الصيف بهواء بلده البارد القادم من قمم الجبال الغربية المحيطة بها.. هل يمكنه أن ينتخب شخصًا كان السبب في ذلك السجن وذلك الحرمان والعذاب؟ إنهم حتى الأمس اعتقلوا عشرين شخصًا من حارسة من رفاقنا ومن غيرهم، حتى ابني منذر طاردوه، فاضطر إلى أن يختفي عند أصدقاء له في البادية.

لا أدري، أدرك أننا سننال الحرية ثمنًا لنضالات طويلة وتضحيات كبيرة عُمّدت بالدم قدمناها طوال ثلاثة عقود، لكنني في المقابل أرى أن رفاق الأمس بدأ يفرط عقدهم، وخصوم الأمس لم يبقوا هم أنفسهم، كل شيء يتغيّر، ولا أعرف ماذا سيحدث غدًا.

إلياس

لي بلاد أحبها وهي تنأى
علي جعفر العلاق.
تفاحة الضوء

حارسة..

أخي الدكتور أسامة أقرب أخ لي، وأكثر من يجلس معي ويحادثني، ويبدي اهتمامًا بعملي ومشاريعي. طالما حدثني عن روسيا والفنون فيها، حدثني عن زياراته لمتاحفها وبشكل خاص الأرميتاج، والمتحف الروسي في لينينغراد، ومتحف تريتياكوفسكي في موسكو، وحدثني عن الأعمال الفنية التي تزيّن ساحات وحدائق مدنها، والعمارة العظيمة. كان لديه حس فنان، يُحب العمارة والفنون، ولديه ألبومات كاملة من صوره أسفل التماثيل وأمام الأماكن الأكثر شهرة؛ تمثال العامل حامل المطرقة والفلاحة حاملة المنجل الموجود في معرض المنجزات، وتمثال يوري غاغارين؛ أول رائد فضاء في العالم، وتمثال الأم المحررة في موسكو، وتمثال بطرس الأكبر في لينينغراد وهو يمتطي حصانه الواقف على قوائمه الخلفية. وشرح لي كيف استطاع النحات أن يوقفه على قائمتين، إذ اعتمد

الذيل دعامة ثالثة، وصورته أمام كنيسة القديس باسيل في الساحة الحمراء في موسكو ذات القباب الملونة، وكثير من الصور في كل المدن التي زارها. وكان يحدثني عن ذكريات الدراسة، والأصدقاء، وقفشات السنة التحضيرية عندما لم يكونوا يعرفون اللغة الروسية، ولقاءات أبناء حارسة في السكن الطلابي، وإصرارهم كلما التقوا على أن يطبخوا المنسف، وأغلبهم لم يكونوا يجيدون طبخ شيء سوى المنسف.

حدثني كثيرا عن صديقه إلياس ابن دمتري كاراميلس ميكانيكي الجرارات الذي قادته الأقدار من إسطنبول ليستوطن حارسة ويصبح واحدا من أبنائها ووجها من وجوهها. قدِم دمتري كاراميلس من إسطنبول إبان الحكم العثماني، كان عثمانيًّا من أصول يونانية. لم يستطع أبوه الهجرة إلى اليونان فمات مقهورا في إسطنبول موصيًا ابنه دمتري أن ينتظر خروج الإمبراطور قسطنطين من أحد أعمدة كنيسة آيا صوفيا. هكذا كان يعتقد، وظن أن الإمبراطور سيعيد مجد الأمة الرومانية، وبقي دمتري بدوره ينتظر بعث الإمبراطور من جديد.

عمل في إسطنبول في ورشة لتصليح الجرارات الزراعية، لكن صاحب الورشة اتصل بالبطرك وأخبره أن إيمان دمتري غير كاف، فقرّر البطرك إرساله إلى البطريركية الأرثوذوكسية في القدس ليخدم في سلك الكهنوت. هناك في القدس، وقبل أن يخطو أي خطوة في سلك الكهنوت خانته عيناه، كما كان يسرد قصته ابنه إلياس، فوقعتا على امرأة عربية تخدم

في الدير اسمها كاثرين. طلب من البطرك أن يزوجه بها وأن يغادر الدير إلى حيث يشاء. أدرك البطرك رغبته في عدم سلوك طريق الكهنوت، فزوجه من محبوبته كاثرين وحمّله رسالة إلى خوري الروم الأرثوذوكس في حارسة، وحملّ كاثرين رسالة إلى المتصرف فيها.

هكذا أتيا إلى المدينة، واستقبلهما الخوري استقبالا حسنا، وقضيا ليلتين في الدير، ثم اصطحب الخوري كاثرين إلى المتصرف وسلّمه رسالة البطرك الذي يطلب إيجاد عمل لحاملة الرسالة. عملت كاثرين في سلك الشرطة، أما هو فقد استأجر مكانا يدير به ورشة لتصليح الجرارات الزراعية.

النساء هن الأقدر على تلمس روح المكان، سرعان ما استدلت كاثرين على مقام الولي العجمي، فقامت بزيارته، وأجبرت زوجها على شراء طعام ليضعه في المقام، محاولة إقناعه بأن ذلك ضروري حتى يُسهّل لهما الولي العجمي إقامتهما بأمن وسلام في حارسة.

في رأس الشارع الذي يتوسط حارسة الممتد من جنوبها إلى شمالها، أنشأ دمتري ورشة لتصليح الجرارات الزراعية، شابَ شعره ولم يتقن العربية، وعملت زوجته شرطية سجّانة مسؤولة عن سجن النساء في حارسة، تقضي معظم الوقت في السجن. الوظيفة علمتها التسلط حتى على زوجها الذي لا يجيد العربية ولا يتكلم كثيرا، ويلجأ إلى الصمت سلاحا لمواجهة تسلط الزوجة. كان ينقاد لها بمزاجه، وعندما لا يعجبه

شيء منها يصمت وكأنه أصم. في البداية كانت تغضب كثيرا؛ تصرخ وتكسّر الأواني، لكنها استسلمت أخيرا، ربما لأنها أنجبت أطفالا وانشغلت بهم؛ أنجبت هيلانة وإلياس.

فرح الأب لقدوم الولد، فراح يحلم بأنه سيكبر ويتسلم الورشة منه بعد أن تعب هو وتقدم به العمر. لكن إلياس نشأ مدللا، ولأنه كان جميلا، جمع بين طول قامة والده، وسواد شعر أمه، كان محط انتباه الفتيات المراهقات، فراح يخوض مغامرات غرامية طائشة، قبل أن يدعوه أسامة لمقهى الخشمان، حاول أن يدخن الأرجيلة، إلا أنها لم تعجبه، شرق بأبخرة دخانها وكاد يختنق، فلم يقربها بعد ذلك، لكنه استمع لأول مرة لأمجد الذي كان يكبرهما سنا، والذي راح يحدثه عن الكادحين، وكيف يُستغلون، وأنهم مظلومون رغم أنهم أكثر من يخدم المجتمع، لكنَّ عائدَ كدحهم لا يستفيدون منه، ويستفيد منه غيرهم، ولا ينالهم منه إلا الفتات.

يقول أسامة إن إلياس بعد ذلك اللقاء انقلب تماما، توقف عن المغامرات الغراميّة، ولبس الأفرهول، وصار يعمل في ورشة والده بعد انتهاء دوام المدرسة، وصار يلجم أمه كلّما حاولت أن ترفع صوتها على أبيه، وبعد أن أنهى الثانوية ذهبنا معا للدراسة في روسيا، أنا درست الطب، ودرس هو هندسة الميكانيك. وعندما عاد فتح ورشة كبيرة لصيانة الآليات.

جاءني اليوم أسامة ليخبرني أن إلياس اعتُقل، اعتقلوه من الورشة. لم يبدُ على أسامة الحزن لاعتقال رفيقه وصديقه، فجأة ضحك، وعندما سألته عمّا يضحكه، قال:

- أنتِ لا تعرفين إلياس، إنه نهفة! سيحوّل المهجع في السجن إلى مسرح، إنه بارع بسرد القصص، كان يسرد قصة أمه وأبيه مرّات كثيرة، وفي كل مرة كان يقدم إضافات، لا أدري إن كانت حقيقية أو من خياله. كان يجيد السخرية من نفسه، ومن أبيه وأمه، يسخر من أبيه الذي شابَ ولم يتقن العربية، ويسخر من أمه السجّانة عندما تتسلط على أبيه، أو كيف كانت تسيطر على السجينات، إذ كانت تبرك بعجيزتها الكبيرة على أي متمردة من السجينات حتى تسيطر عليها فلا تعود للتمرد مرة ثانية. ويسخر من أبيه الذي كان يقاومها بالصمت، وكيف قادته إلى مقام الولي العجمي في اليوم التالي لوصولهما إلى حارسة، ليضع فيه الطعام، ولتضيء هي فيه الشموع. وكيف ذهبت تستنجد بالولي العجمي لتوقد الشموع، ولتسأله الستر والسلامة عندما كشفوا إحدى مغامراته هو مع دعد صديقة أخته هيلانة. قال إن أمه ثبّتت الشموع في مكانها وأوقدتها، ثم أغمضت عينيها ورفعت يديها مبتهلة إلى الرب وإلى يسوع المسيح وإلى القديسة الطاهرة مريم، وإلى بطرك الروم

الأرثوذوكس. وما أن انتهت من دعائها وابتهالاتها وفتحت عينيها، حتى وجدت الشموع قد انطفأت وسقطت من مكانها وداستها قدماها من دون أن تشعر بذلك. حينها تملكها الخوف، وغادرت المقام وهي موقنة بأن الولي العجمي غاضب مستاء.

قلت له:

- هذا ذكاء اجتماعي، إنه يبقي نفسه في حالة معنوية عالية، يا عزيزي.

ثم سألته إن كانت هناك أخبار عن سجناء الهبة، وإن كانوا قد علموا بما حدث لوالدي، قال:

- أخبارهم جيدة، فهم يدركون أن الحكومة أقدمت على اعتقالهم للحيلولة دون تحويل الهبة الشعبية العفوية إلى احتجاج سياسي له مطالب واضحة، ولما أسقط في يد الحكومة، واستطاعت الجماهير إيصال رسائلها، ومطالبها، أصبح خروجهم من السجن مسألة وقت لا أكثر. ووصلني أن هناك مفاوضات مع القيادات في السجن حول مطالب الشارع، وسنسمع أخبارا سارَّة في القريب العاجل. ومن مطالبهم الكشف عن المعتدين على أبي، ومحاسبة المسؤولين عن مقتل الأبرياء.
- لقد أحببت شخصية إلياس، ما يلفت نظري دائما هو ذلك التنوع الكبير في شخصيات حارسة، والتناغم الكبير بينهم.

- نسيت أن أخبرك بشيء طريف عنه أيضا، رغم أن أباه مات وهو لا يجيد العربية، إلا أن إلياس كان من عشّاقها، وكان يكتب الشعر الفصيح، وطالما أعار شعره لأصحابه ليتقربوا به من الصبايا.

لقاء دافئ

للقلب أعذار لا يدركها العقل.

باسكال

المحقق حابس..

استمعت لأفراد عائلة البرجاس جميعهم باستثناء ابنته حارسة، حتى كنّاته استمعت لهن، لم يُضف أي منهم معلومات جديدة يمكن أن تفيدني في التحقيق، بعضهم قابلني بعدائية واتهام مثل الدكتور أسامة، وإبراهيم، أما زوجة البرجاس السيدة شريفة فواجهتني بالتوبيخ لأننا لم نتوصل إلى الجناة. كنت أمتصُّ ذلك بأعصاب هادئة، فأنا جندي أولًا، وعلمني أبي نبل الفروسية وأخلاقها. عليّ أن أكون هادئا حتى أصل إلى النتيجة، وقد تعلمت أن أصحاب الأصوات العالية غالبًا ما يسعون إلى إبعاد الشبهات عن أنفسهم، لكن في حالتي هنا لم أشتبه بأحد، فأفراد العائلة جميعهم كانت تربطهم علاقات وثيقة، وهم يحبون بعضهم بعضًا، ويتضامنون مع بعضهم بعضًا، والأب بالنسبة لهم فوق كل خلاف، واحترامه مفروغ منه بل يكادون يقدّسونه. يختلفون بالسياسة لكن لا تصل الخلافات إلى أن يقاطع أحدهم الآخر، أو يعاديه.

معرفتي بحارسة محدودة وغير مباشرة، كانت الآنسة حارسة معروفة في المدينة بأنها صاحبة موهبة في الرسم، وقد أقامت معرضًا وهي طالبة في الثانوية برعاية وزير الثقافة، رأيتها مرة واحدة عَرَضًا، جمالها لا يمكن أن يخفى على أحد، لكنها فتاة جادة لا يجرؤ شاب على التحرش بها، إذ لن يسلم من لسانها، ثم بعد ذلك لن يسلم من إخوتها. عرفت أيضا أنها سافرت إلى الخارج لدراسة الفن، وأنها عادت، لا أكثر من ذلك.

لا أنكر أنني كنت متهيّبًا من مقابلتها، لكن ما كان يسعفني هو أنني أقابلها في إطار التحقيق حول الاعتداء على والدها. فوجئت أن طلبي لم يلق اعتراضًا من أحد، بل لاقى الترحيب. وجدتها في استقبالي في منزل أهلها، استقبلتني أمها وأدخلتني غرفة الاستقبال، ثم ذهبت لتنادي حارسة.

جلست مقابل لوحة كبيرة لوالدها في صدر البيت، للشيخ البرجاس مهابة كبيرة واضحة في اللوحة.

لم تتأخر حارسة كثيرًا، بدا لي أنها كانت تنتظر قدومي، إذ إنها كانت بأفضل هندام وأناقة، وكأنها ذاهبة إلى مركز عملها: كانت ترتدي طقمًا فيروزيَّ اللون مكوّنًا من جاكيت وتنورة طويلة، وقميصًا أبيض، وقد لفَّت عنقها بشال حريري يغلب عليه اللون الفيروزي، وحذاءً عالي الكعب. شعرها الأسود الذي كان يصل حتى كتفيها، جمعته إلى الخلف بمشبك عظمي. جلست في مواجهتي على المقعد المجاور، حيّتني ورحَّبت بي،

ثم طلبت مني أن أتكلم بما جئت من أجله، طلبت ذلك على طريقة موظفي العلاقات العامة:

- تفضل، حابس بيك، بماذا يمكن أن أفيدك؟

جدّيتها لم تكن مربكة للحد الذي كنت متخوفًا منه، بل بدت لي مريحة، ومستعدة لحوار جدّي. سألتها:

- سيدة حارسة، هل تشتبهين بأحد في حادث الاعتداء على والدك؟

وجهت نظراتها لثوانٍ إلى الأعلى، ثم عادت لتنظر في وجهي مباشرة، وتقول:

- ربما سمعت من جميع أفراد العائلة أن أبي لم يكن له أعداء، ولم يدخل في شقاق أو نزاع مع أحد طيلة حياته، هذا على المستوى الشخصي، لكن مواقف أبي ربما شكّلت تحدّيًا، أو قُل تهديدًا لطرف أو أطراف ما من وجهة نظري (ثم أسندت ظهرها وأشارت بسبابتها نحوي وأضافت مع ابتسامة لطيفة): بعض أجهزة الدولة، مثلًا، والرجعيين، أيضا.

اتخذتُ هيئةً جادة، وقلت:

- ليس من سياسة الدولة الاعتداء على أبنائها، يا سيدتي.
- السياسات تتغير بحسب الظروف، وبحسب من يكون على رأس السلطة، حابس بيك.

فاجأتني بوعيها السياسي، لم أتوقع ذلك لسببين: الأول أنها فتاة، ولم يُعرَف كثيرًا عن بناتنا اهتمامهن بالسياسة التي يعتبرنها شأنا ذكوريًّا، والثاني، هو أنها فنانة، والفنانون غالبًا ينأون بأنفسهم عن التدخل في السياسة.

في لحظة تمكنت من التأمل في وجهها، بدت لي فاتنة وفائقة الجمال: الوجه الأبيض الناعم، العينان الواسعتان السوداوان، الأنف المرتفع قليلا، الشفتان الرقيقتان الزهريتان كأنهما شفتا طفل. سبحان الخالق!

قلت:

- تأكدي سيدة حارسة، أنني شخصيًّا، بما أنني أتولى التحقيق في هذه القضية، لا أستبعد أي احتمال مهما كان ضعيفًا، هذا واجبي بوصفي محققًا، لكني لا أستطيع أن أوجه اتهامًا لأحد جزافًا، كما أننا نتحرى عن الفاعل أولا، ثم بعد ذلك نتحرى إن كان قام بفعلته بدافع شخصي، أو بدفع من طرف آخر.
- قرأت في أوراق والدي عن حادث حصل مع الشاويش أبي الشامة قبل نحو خمسة وعشرين عامًا، هل يمكن أن يكون ذلك معلومة مهمة بالنسبة لك؟

شرحت لي الحادثة كما رواها والدها، صدمتني بالمعلومة، وأربكتني، هل يمكن أن يكون مديري طرفًا في الجريمة؟ هل يمكن أن

تكون حادثة بسيطة مرّت عليها خمسة وعشرون عامًا سببًا كافيًا للرغبة في الانتقام والثأر للكرامة الشخصية؟

كانت والدتها قد أحضرت الشاي وقدمته لنا. مع أنه لم يبق لدي ما أسأله، إلا أنها كانت فرصة للتعرف على حارسة أثناء شرب الشاي، شكرتها على المعلومة المهمة، التي سآخذها بالاعتبار أثناء التحقيق، ثم سألتها بود، مع ابتسامة:

- هل تأذنين لي بسؤال شخصي؟

قالت بثقة تامة:

- تفضل، هل انتهينا من التحقيق حول حادثة أبي؟
- نعم، وسؤالي: أنت، ما شاء الله، لديك وعي سياسي واضح، يبدو أن الوالد ترك أثرًا في ذلك، لكن كيف اتجهتِ إلى الفن؟
- أحببت الرسم منذ صغري، ولا أجد تناقضا بين اهتماماتي السياسية، والفن.
- هل يمكن للفن أن يؤدي رسالة سياسية؟
- طبعا، لا فن من دون رسالة، إذا لم يكن لدى الفنان قضية سامية يؤمن بها، فإن فنه لن يكون له قيمة.

ثم ابتسمت، وأضافت مستدركة: ما شاء الله، لأول مرة أرى عسكريًّا مثقفًا.

كنت قد أكملت كأس الشاي، أثنيت على حسن الضيافة، وعلى الشاي الطيب، وشكرتها على المعلومة المفيدة ثم استأذنت بالخروج. قالت وهي تودعني:

- أنا جاهزة دومًا للتعاون معك للوصول إلى الحقيقة، اتصل بي في أي وقت.

أراحني وأقلقني اللقاء، ارتحت للفتاة التي كنت متهيّبًا من لقائها، بل هبّت على روحي نسمة بعبق الياسمين أنعشتها، ومنحتني طاقة مفاجئة، وأقلقني اللقاء، فكيف بي أن أحقق مع مديري؟ تذكرت كلام العم مسلّم عندما رآني في مقام الولي العجمي: ضالتك تحوم حولك.

عندما عدت إلى مكتبي أعدت ترتيب المعلومات التي تجمَّعت لدي في محاولة لبناء سيناريو لعملية الاعتداء، وعلاقة كل طرف: العقيد عاد إلى حارسة بعد خمسة وعشرين عامًا، دون أن ينسى الإهانة التي تلقاها من البرجاس أمام الناس في وسط الميدان، قرّر أن يصفي حسابه، لجأ إلى مصعب، الشاب المحشو بأفكار دينية متطرفة، فهو لا يقبل بوجود أشخاص ملحدين، يوحي له بطريقة غير مباشرة بأن البرجاس شيوعي، وأنه كبير الشيوعيين. مصعب يتصل بأخي ورد، يريد أن يؤثر عليه بفكره الديني. ورد الذي لم ينس مقتل أخيه على يد ابن عم البرجاس، ولأنه لم يثأر لأخيه فإنه يشعر بالمهانة، يتفق مع مصعب على العداء للبرجاس، ويقرّران، ربما تأديب البرجاس، لا قتله، وربما العكس.

كان الوصول إلى هذا السيناريو سهلًا، لكنه لم يقنعني حتى النهاية، فالتوقيت جزء مهم في السيناريو، التوقيت هنا لم يكن مناسبًا للسيناريو، إلّا إذا وجدت تفسيرا له. توقيت الاعتداء بعد الاجتماع لا ينسجم مع فرضية البعد الثأري الخاص. لكن هل يمكن أن تكون هناك جهة في الدولة لها مصلحة بهذا الاعتداء؟ إذا ما كانت الدولة هي صاحبة المصلحة، فلا يمكن أن يكون مصعب وورد هم أدواتها، إنها بكل بساطة تستطيع أن تستخدم أدواتها الخاصة. وأنا أستبعد أن تكون الدولة هي وراء الاعتداء، إلا إذا كان لديها قرار مبيَّت منذ زمن، وهذا ما أستبعده، فعلاقات البرجاس مع الحاكم الإداري قوية، ويوجد بينهما احترام متبادل.

عادت الأمور تتعقد، السيناريو الذي تشكّل بسهولة سرعان ما انهار. كنت قد تواصلت مع دائرة المخابرات لمعرفة ما لديهم من معلومات بخصوص هذه القضية، وأكّدوا لي أنهم مستاؤون أصلًا مِن ما حدث، لأن أصابع الاتهام ستوجه لهم خاصة أن الحادث جاء بعد انتهاء الاجتماع الذي دعا إلى تغيير الحكومة وإلغاء الأحكام العرفية.

لم يبق أمامي إلا ترجيح السيناريو الأول، والمضي في إثباته، لكن إلى ماذا أريد أن أصل، وأخي متورط، والعقيد ليس شخصًا ساذجًا، إنه يعرف أن الاعتداء تم باستخدام النبّوت، ولو ضغطنا على مصعب سيعترف بأن

النبّوت يعود لأبي، وأن وردًا هو من أحضره، هل يمكن أن أضحّي بأخي لأصل إلى الحقيقة؟ أم أخفيها من أجل أخي؟

لم أنم، طوال الليل وأنا أتقلّب على جمر الأفكار، وحارسة لم تغب عني ولا أمها ولا البرجاس الذي رأيته بين الحياة والموت. ما ذنب هذه العائلة أن تفقد أحد أفرادها؟ ليس أي فرد، إنه الأب الذي يحبه الجميع، ويَجمع حوله كل أفراد العائلة بحب منقطع النظير. شخص يحبه أهل حارسة جميعًا، وهو يحبهم، ويحب حارسة حتى العشق. خطر ببالي أن أقدّم استقالتي وأترك أخي لمهب الريح، أو أن أكشف الحقيقة، وأهاجر بعيدًا عن أعين أهلي وأعين الناس.

ظهر لي الولي العجمي مجددًا، قرّرت زيارة قبره وطلب العون منه وأنا لا أعرف كيف سيساعدني.

الحقيقة المرّة

لا أحد يحبّ فينا الشخص العادي.

تشيخوف

حابس..

وجدت نفسي وحيدًا في هذا المأزق، لا يوجد من يمكن أن ألجأ إليه لأستشيره بما يمكن عمله: أخي متورط في جريمة، ومديري مشتبه به، وأنا أمام واجب، أمام استحقاق، معرّض أن أفقد مستقبلي الوظيفي، وحياتي مهدّدة.

اتجهت من فوري إلى مقام الولي العجمي، قرّرت هذه المرّة أن أُحضر معي بعض الطعام والماء وأضعه في المقام. اقتربت من المقام بحذر مبالغ فيه، وكأنني مقدم على عمل مشين، لا أعرف لماذا لم أكن أرغب في أن يراني أحد. دفعت الباب بهدوء، فاستلبني شلال الضوء المتدفق من النافذة الصغيرة، بدا داخل المقام حينئذ معتمًا حتى أغلقت الباب خلفي، ويا للمفاجأة؛ رأيت وردًا جاثيًا إلى جانب الضريح يجهش بالبكاء، اقتربت منه ورفعته من كتفيه، وسألته عمّا جاء به، ولماذا هو يبكي:

- ضميري يا حابس. أنا لم أعد أعرف النوم، لا أعرف أي شيطان تلبَّسني حتى أقدمت على فعلتي.

حزنت له كثيرًا، لن يهدأ ضميره على فعلته تلك، سألته:

- وماذا عن مصعب؟ إنني لم أعد أراه.
- أعترف بأننا ألّبنا بعضنا بعضًا، أما هو فضميره مرتاح، فأنا من ضربه بالنبّوت.
- لكن ما باله مختفيا؟
- حدثني أنه سيغادر البلد، وأن هناك شخصية كبيرة ستساعده.
- إلى أين سيخرج؟
- قال إلى أفغانستان، سيذهب للجهاد في أفغانستان.

سرح ذهني للحظة لا أعرف كم طالت، لكني عندما عدت إلى نفسي، وجدت وردًا ما زال في مكانه، قلت له:

- ورد! يبدو أنّ عليك أن تحذو حذوه، لا يمكنك البقاء هنا، القصة ستكشف في النهاية، إن مات الرجل فسيُطلب رأسك على الأقل، وإن لم يمت، ستُسجن، ويضيع عمرك. اذهب إلى أي مكان، وابنِ حياة جديدة، وعد إلى ربك.

نهض ورد، وقف أمامي حزينا، وفجأة هجم عليّ معانقًا وهو يطلب مسامحته، تردّدت يداي في احتضانه، لكن في اللحظة الأخيرة تحركتا، ولا أعرف إن كان أحسّ بهما، إذ لم أره بعدها.

خرج ورد، وانهرتُ أنا جاثيًا، ورحت أبكي بحرقة، بكيت طويلًا، بل أجهشت بالبكاء. كان بكاءً حارًّا، كأنه نار كانت محبوسة خلف جدار، وفجأة انفتح الباب، فتدفق اللهب كأنه التنّور. ولا أدري كم مضى من الوقت عليّ في تلك الحالة عندما دخل العم مسلّم.

دخل كعادته دون أن يسلم أو يكترث لوجودي، وضع الطعام والماء الذي أحضره، والزيت للمصباح، لكنه عندما سمع نشيجي، اقترب مني، وهزني من كتفي، وسألني:

- ما بك يا بني؟
- أنا حزين جدًّا، يا عم.
- هل فقدتَ عزيزا؟
- نعم.
- لا تحزن، ربك كريم، سيعوِّضك. ما دام قلبك نقيا وضميرك صافيا سيعوِّضك الله. إن الله لا يُضيع أجر المحسنين. صمت قليلا ثم أضاف: الشيخ البرجاس عاد.

انتفضت من مكاني كالملسوع، وسألت رغبة في التأكد ممّا سمعت.

- ماذا قلت؟

- مثل ما سمعت، إني رأيت الشيخ البرجاس وقد عادت أعضاؤه تتحرك.

شكرته على الخبر، وخرجت مسرعًا لا أعرف أين أتجه، إلى المكتب أم إلى بيت الشيخ البرجاس؟ إلا أنني اتجهت إلى القلعة، وقفت خلف سورها ونظرت إلى حارسة التي بدت ساكنة، وقد خلت شوارعها من الناس ومن الحركة، جلست على أحد حجارة القلعة الكبيرة، أخرجت سيجارة وأشعلتها. لم أدخن منذ الصباح، سحبت نفسًا طويلًا، احترقت السيجارة حتى منتصفها، ثم نفثت الدخان، فكرت بحارسة، حارسة المدينة، وحارسة تلك الوردة الجورية التي هزت أركاني منذ لقائي بها، وفكّرت بأخي ورد، والشيخ البرجاس، والعقيد أبي الشامة؛ هل أترك الريح تتلاعب بشراعي؟ أم أشد شراعي وأحرّكه وفق ما أريد؟

عليّ أن أعلن للعقيد عن كل ما توصلت إليه، ولْيتحمّل هو مسؤوليته، سأحتفظ بنسخة من التقرير، لن أستطيع أن أخبر حارسة أو أهلها بما توصلت إليه حتى أعرف موقف المدير، حينها لن أبالي بكشف الحقيقة. لن أخاف على حياتي من أهل البرجاس، فأنا قمت بواجبي، وأدنت أخي، كما أن لعائلتنا دَينًا سابقًا برقبة البرجاس. ليست هنا المشكلة، بل كيف سيكون تعاملهم معي بعد ذلك؟ وهل سأبقى في وظيفتي بعد تورط أخي؟ وكيف ستكون ردة فعل العقيد، وردة فعل الحاكم؟

لم يَطل الأمر، رأيت العقيد في اليوم التالي، استدعاني إلى مكتبه، وراح يتكلم طويلًا وقد بدا على وجهه الشحوب، والظلال السوداء قد أحاطت بجفونه:

- حابس بيك، ربما أنت تشتبه بتورطي في الحادث، لن أدافع عن نفسي، أنت تعلم أنني كنت أراقب ذلك السافل حتى أعرف حركته، لكنه فعلها، لعنة الله عليه، وهو سيثير الشبهة حولي، لكني لم آمره بهذا الفعل المشين، أنت تعرف، ليس من سياستنا أن نقوم بمثل هذه الأفعال. أتمنّى أن يختفي هذا اللعين. أنا وأنت في الورطة نفسها، علينا أن نفكر بما فيه مصلحتنا.

صمت وبدا أنه ينتظر مني ردًا على اقتراحه، لكني فاجأته بخبر العم مسلّم، وقلت:

- ربما يعود البرجاس لوعيه، ويتكلم، ويكشف أشياء لا نعلمها.

زاد توتره، لكنه أبدى عدم الاكتراث ظاهريًّا، وقال:

- هذا الموضوع لا يعنيني، ولا يقلقني، أهم شيء ألّا تَذكرَ تردد ذلك الوغد علي. (صمتَ قليلا ثم أضاف): على أي حال، أنا كتبت استقالتي، أنت تعرف أنني أستحق التقاعد منذ فترة طويلة.
- وماذا تنوي أن تعمل بعد ذلك، نظام بيك؟

- سأعود إلى العاصمة، ربما أنشئ حزبًا أو أترشح للنيابة، أو أصبح قاضيًا، أنت تعرف أنني حصلت على الدكتوراة في الحقوق.

ودّعته، متمنيا له التوفيق، حِمْلٌ كبير انزاح عن صدري، اتجهت إلى منزل الشيخ البرجاس، استقبلني أولاده بترحاب لم أتوقعه، أجلسني ناصر إلى جانبه، أخبرتهم عن رؤيا العم مسلّم، فرحوا كثيرًا، واستغربوا أن العم مسلّم لم يزرهم ولم يخبرهم، ولم يفته أن يسألني:

- هل من جديد في تحرياتكم؟

قلت مطمئنًّا لكلامي:

- نعم، ربما وصلنا إلى أول خيط، وربما غدا أو بعد غد ستسمعون أخبارًا سارّة.

في اليوم التالي سمع الناس خبر إحالة العقيد أبي الشامة والحاكم الإداري إلى التقاعد ضمن مجموعة من الإحالات على مستوى البلاد، وأُعلن عن مرتكبي الاعتداء على الشيخ البرجاس.

كان ورد قد اختفى، وكنت قد استجرت بعشيرة الفواضلة، لكن أبناء الشيخ البرجاس أعلنوا فورًا:

- لا نريد شيئًا إذا ما تكفّلت الدولة بالقبض على الجناة وتقديمهم للعدالة.

حارسة أقامت معرضها، ودعتني لحضوره، فوجئتُ بوجهٍ يشبهني، بلباس عسكري. اقتربت مني مبتسمة، وأنا أقف أمام اللوحة متأمِّلًا الوجه العسكري، وقالت:

- هل تفاجأت؟ أنت أحد وجوه حارسة، هؤلاء هم وجوه حارسة الذين يمثلونها.

غابت حارسة وظهرت أمامي وردة جورية صفراء ملأت المكان بهجة، وغبت للحظات في عالم من البهجة، ولما عُدت من غيبتي، وجدتها ما زالت أمامي مبتسمة، فقلت:

- أنت حارسة كلها!

عودة العنقاء

﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾

قرآن كريم

حارسة..

كان صباح ذلك اليوم من شهر أيلول لطيفًا، الشمس المائلة نحو الجنوب كانت ترسل دفئها موقظة عصافير الدوري وديكَ جارتنا الكبير بلونه البني اللامع، وألوان ذيله المتعددة كأنها قوس قزح. شغّلت أمي المسجل بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد الشجي، منذ أن أصيب والدي لم يفتأ صوت عبد الباسط يصدح في المنزل، تقول أمي إن أبي كان يحب سماعه، ويقول إنه صوته ربّاني، وإنه هو من قربه إلى الله. أعدت أمي القهوة، جلست معي إلى جانب والدي، احتست فنجانها، وهي تتحسّر على والدي.

- يا حسرة عليك، يا البرجاس! أحرام لو كنت معنا تحتسي القهوة الآن. حسبي الله على من كان السبب.
- توكّلي على الله، يا أمي، إن الله ليس بغافل عن الظالمين.

تركتني أمي وذهبت لأشغالها، وعدت أنا أغوص في أوراق أبي، لعلي أجد شيئًا جديدا يقودني إلى مشتبه بهم، لكني وجدت أشياء أخرى لفتت انتباهي، وجدت خاطرة يقول فيها: «لماذا لا يكون لدى حارسة نصب تذكاري، تمثالٌ واحد على الأقل، أو أكثر لقادة عظماء: الملك ميشع المؤابي، الناصر صلاح الدين الأيوبي، الظاهر بيبرس المملوكي؟ أليس لدينا قادة عظماء؟ هل يعرف أبناؤنا قادتهم؟ الشعوب الحية تُبقي تاريخها حيًّا، من له مصلحة بإبقاء تاريخنا طي النسيان؟ حارسة تحتاج لإبراز رموزها، حتى تحفظهم الأجيال».

لم أكن أعرف أن أبي واعٍ لأهمية الفنون في الحياة إلى هذا الحد، أدركت الآن حماسته لتدريسي الفن. لم أعرف عن أبي أنه مارس الفن في حياته، لكني أعتقد أنه تأثر بذلك من زياراته إلى دول العالم، زار موسكو وباريس ولندن، والقاهرة وبغداد في حياته، وكان يحب زيارة المتاحف أين ما ذهب.

في صفحة أخرى وجدت اسمي، قفز قلبي من مكانه، سارعت في القراءة، فقد تملكني الشوق أن أعرف ماذا كتب عني. كانت الخاطرة يوم ولادتي، كتب يقول: «فرحتي اليوم لا توصف، جاءتني الابنة الوحيدة بعد الأولاد الأربعة، نجمة تتألق في السماء، شمس تشرق علينا كل صباح، وردة تنثر السعادة في أرجاء البيت، سأسمّيها حارسة، الاسم غريب وغير مألوف، لكنها ستكون متميزة، باسمها وشخصيتها ومكانتها، ستكون

حارسة لهذا البيت، حامية له، موحدة لقلوب وعواطف وعقول إخوتها. بارك الله فيها».

كم سعدت وأنا أقرأ تلك الكلمات القليلة الجميلة، أبي يكبر في عيني أكثر وأكثر، وهو يحمّلني مسؤولية ثقيلة، لكني أعاهده أن أحملها حتى اليوم الأخير في حياتي.

مذ أخبرنا حابس برؤيا العم مسلّم وأنا لا أفارق أبي، أريد أن أراه يعود إلى الحياة، يفتح عينيه، ويتعرف علينا جميعا، أريده أن ينهض، ويمشي رافعا رأسه في شوارع حارسة، يحيي ناسها، ويضحك ضحكته المجلجلة تلك، سأذبح له بعيرا وأوزع لحمه على أهل حارسة جميعهم كما ذبح لي الكبشين الكبيرين، سنقيم له عرسا، أنا متأكدة أن باتع الخشمان رغم تقدمه بالسن سيأتي ليحمله على كتفيه، سيأتي الشباب ويزفونه كأنه عريس.

كنت أنهض كل حين من مكاني مقتربة منه، لأكون أول من يراه يفتح عينيه، لا أدري لماذا كنت مطمئنة لحدوث ذلك، مرّت أيام ولم أيأس، ولم أتوقف عن الحلم.

في ذلك اليوم التشريني، فجأة أحسست بقلبي يقفز من مكانه، عندما اقتربت منه، ورأيت سبّابته تتحرك، في البداية جمدت في مكاني لأتأكد ممّا رأيت. ارتفعت سبابته كثيرًا، وارتعشت بقية أصابع يده اليمنى، نظرت في وجهه، رأيت بؤبؤي عينيه يتحركان، صحت من قاع صدري غير مصدقة

وقد تردد صدى صوتي على أسوار قلعة حارسة وبيوتها: أمي.. البرجاس عاد.

وما هي إلا لحظات حتى رأيت أهالي حارسة جميعهم يتدفقون في شوارعها كأنهم السيل متجهين نحو بيتنا.

فهرس المحتويات

مقدمة 9

ربيع الغضب 12

عرس الدم..... 22

أحلام وكوابيس 29

فجر حارسة 39

المظاهرات..... 44

أهل حارسة 51

ذاكرة لا تُنسى 58

ضوء في نهاية النفق..... 64

لقاء الخصوم 67

الحب الأول..... 72

عودة البرجاس 77

الرُّبّان أبو أحمد..... 81

الصيدلي يوسف..... 90

ثورة شريفة 97

النبّوت 101

بوح 105

عتيّق الجزار 115

العم مسلّم 118
حوار بلا قيود 129
بدايات لا نهاية لها 136
مشاعر تائهة 143
إلياس 149
لقاء دافئ 156
الحقيقة المرّة 164
عودة العنقاء 171